أيام صعبة

رواية

نجلاء الشافعي

اســـــم الكتـــــاب: أيام صعبة
اســم المــؤلـــــف: نجلاء الشافعي
التـرقيم الـــــدولي:**978-2-12-345620-9**

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع © محفوظة لدار المحرر الأدبي للنشر والتوزيع المشهرة برقم 24821 بتاريخ 2015/10/1. ومقرها جمهورية مصر العربية / محافظة الجيزة.
وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون موافقة قانونية مكتوبة من الناشر يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

إهـــــــــــــداء

لكل..

أنثى أحبت وترنمت عشقا وهياما في حب رجل تاه عنها.

عاشق ولهان ضاع دربه إلى حبيبته أيا كان السبب.

من عاش بحشايا قصة حب دون أمل أو نهاية.

ثم..

للدنيا ومتاعبها..

للحياة وأحداثها..

والأهم..

لآخرتي المنتظرة..

ولك آسري.

مقدمة

هل منا من يعرف نفسه حقا؟؟!!، يفهم تراكيب أحلامه أيامه لياليه وأمنياته، يستوعب حقائق خلجاته، يتعامل مع أوهامه وظنون تتعب حياته، يدرك لحقائق أحداث الدنيا فرح وأحزان نفسيته، لا أحد يعرف أو يدرك حقيقته، أو حتى يستوعب إلا شرذمة قليلة لثوان تساوي زمن صمته.

اليوم سأحكي قصة مختلفة عن خائن عاش ويعيش غيره كثير معنا، عن ظل متخفي في الأجواء، شبح لإنسان كان وبات الآن ذكرى بجدارة تُهان.

تعالوا نتجول في ذاك العالم المليء شراك خانقة لبراءة نفس، غارزة لتوحش روح، قتل لكيان حب ووفاء، عالم لا يشمل إلا كل من باع وخان؛ عالم تحبس في كل خطوة معه أنفاسك وكأنه أخر نفس تزفره، ويجبرك الانفعال على شهيق تشعر معه بتيبسك لتدخل بلاد الحَجَرِ في ثوان.

نعم.. سأحكي عن قصة خائن باع بلادة، متوهما وبغباء وحُمقِ تميزه ببراءة تخرجه خارج إطار الشبهات، ومعها مزيج من قصص لعشاق وأحبة خانوا رجل أو أنثى لن تفرق فكلاهما أذنب وباع حبيبه برخيص الأثمان، وسأمزج معها حلقات.. على شكل برنامج إذاعي أسميته شهر نان.. هو مثيل لحكايات شهر زاد.

كُل حلقة تحكي، قصة حب لا يهم نهايتها، أو هل خطواتها سارت على الطريق السليم، أم انتهت بهجر وفراق، هي قصص نعيش واقعها يوميا في كل مكان، الخائن أنثى أم رجل لا يفرق، فكلاهما في عالم الحب سواء، تتساءلون لماذا حكايات الحب هنا؟!

لماذا تقصي روايات عشق أنتِ وشهر نان، تسبق قصة رجل خان نفسه وبلاده؟! وإجابتي بأن هناك من يخون...

وطن كبير ولد وتربى على أرضه، غرس هوائه وعبيره برئتيه، بكامل إرادته الحرة متعللاً بكثير الأسباب.

وهناك من يخون، وطن أصغر، وطن يحويه هو منفردا، وطن عشقه وكان يتمنى رضاه؛ لكن.. وآه من لكن فضل خائنه تركه يتجرع دماء مسمومة من هجر وخذلان.

يَطعمُ آهات ممزوجة بنزف دموع نكران وحرمان حبيب.

الفصل الأول: قطع الشطرنج

شهرنان يا شهرنان.. هليَّ علينا وغردي، أشدي أعذب ألحان الحكايات، أسعدينا بما يُنسينا ما نراه من دنيا متعبة، بشر ذوي طبائع مؤرقة ظالمة، قدمي نصحك ملفوف داخل سطور وأحرف روايات وأساطير سارقة، أحكيها لنا بإثارة مغلفة متشبعة.

يا غالية.. لا تنوحي في القصص وأعلني الاستقالة من أحزان وآهات تسكننا دون نهاية، غني واعزفي بدون غاية إلا سعادة قلوبنا المرهقة، أَفرِحِي قلوب أشجينا وأمتعي فينا النظر قبل السمع، أطلقي شعلة ونيران الخيال لتسبح معك في السموات العلا.

شهر نان.. أخبرينا عن حب لرب العالمين وتقرب إليه لنهاية الأزل، أحكي بسعادة عن مدينة فاضلة، وعن حياة مريحة رغيدة تزين الوطن، أحكي عن ملك ورعيته يسأل عنهم وبالحق يجيب، عن أمال وأحلام محققة ببساطة دون كلل أو ملل أو حتى تعب.

غردي عن صعود وارتقاء يسكن دنيا البشر، وغني عن حب انتهى نهاية سعيدة، عن أخ صان أخاه ولم يبعه، عن أمين أؤتمن ولم يخون، أعلمينا عن زوج وزوجة لم يبادل أيا منهما الأخر بظلم وسوء خيانة.

شهر نان.. أخبرينا عمن حاول تحسين حالة فحقق حلمة دون سقوط مريع، عن مُتَعَلِم وعَالِم ومُعَلِم يبذلون جهدهم بكل ضمير، تغاضي عن تخريبنا بأيدينا لوطن هو حضن وسكن لكل الآمال، عن اغتيالنا لغيرنا بحجه اختلاف رأي أو نصيحة لم تنل إعجاب متلقيها، عن تعمد الأبناء ظلم أبائهم والعكس كثيرا صحيح، عن مساوئ كثيرة تستعمر فينا الروح قبل القلوب.

يا مَلِيكَه لا تكلي أو تملي وتعودي لواقعنا الأليم، زيفي بكل فن وجمال دنيانا الغريبة، تجاهلي تضاد أقاصيصك لمَ تريه ببشر وبنو آدم محبطين، أغمضي عينيك وأحكي باستفاضة عن نجوم بالسماء تنير لنا طريق الصواب، كواكب تعيدنا لسبل النجاح وترشدنا للطريق القويم.

أحكي يا شهر نان ولا تملي أخبرينا بكل شموخ أن كل ظلم له نهاية، وبأن كل باب مغلق له سبيل وطرقات تحل معضلة غلقه، أن هناك قائد بطل يدرك أن لكل شيء غاية منها يصل لسمو ورفعة وطن، أحكي وأمتعي فينا النظر قبل السمع يا شهر نان.

يا شهر نان غيري رواياتك وقصي علينا حكاية عن خيال يمس الواقع، احضري إلينا شخوصك ليحكوا عما يعتمر رواياتك، يا ذات الخال وخلخلة الخلخال أشجينا بقصه تتغنى كموال.

شهر نان نادت بطلها قائلة..

هلم يا شاعر تهوى عيون وبريق ابتسامات الفتيات، يا قلب فنان قد آنَ وتألمَ من ماض مر وأنتهى، ومِن هوى عشيقاته ذاب وتفتت، تعال اخبرني هل تذكر من كنت فيهن تتفنن؟؟ وهل تذكر تفاصيل الشكل والمنظر؟؟ ولمَ بِهُنَ كنت تختال وتتباهى؟؟ هل علينا بطل مغوار القسمات، شخص من سمته تفوح أعذب الحان الحكايات، ذو بسمه وضاءة تريح من عانى الآهات، آه منه ومن نظرات عينيه ذاك الساهي بريء النسمات.

قالت له شهر نان بخفوت أنثى مسحورة، سأذكرك ببعض منهن ولنبدأ بأولهن نورا ذات الثغر البنور المغرور، وهاتي الثانية هناء آه ذات حسن ودلال ووصال في دنيا الحلم المبتور، وثالثتهن عبير ذات العطر الفواح وشذا ليل وصباح لأيام ملاح متتالية لعصور، والرابعة بسمه هي ضحكة كون غرير الأركان كانت ولكنه من قسوة حياة مقهور، وخامستهن نهى من نهي وأوامر منتهية منذ أزمان وقرون عانت لتعيش الأتي في عمر مكسور, ووو

هن كن سلسلة ساحبه جراره، كفانا الله منها الشر وأية مرارة، آه يا قلب الشاعر كم تهوى الفتيات، وتعشق التغزل بجميلات القد، تهيم بالتغني بحسناوات الطبع، كم فيهن كتبت أشعار وعبارات ملتاعة، كم كن وما زلن صاحبات تأثير وخيال مشاغب يملئ كتاباتك يا فنان العصر.

آه يا ربي ها قد أذن الديك بفراغ صبر يقول انتهى وقتك يا ذات الحسن مع الأحلام، تذكر من كن وما كان وذكريات أسماء وكتابات، صاح معلنا انتهاء تصريحه بكلام مباح عما مضى، مؤذنا ببدء توقيت الصمت بمسافات ضياع وبراح، مناديا على العباد أن حي على الفلاح، حي على العمل على التعب لنيل خير رزق ببركة الصباح، قائلا..

توقفي يا خيالات أحلام طموحة وهلم يا واقع معاش، موقظا للأمل وللتفاؤل منبها للحياة، منوما لكل خيال وحلم لم يحن وقته ليرى معه نور الصبح، مبشرا بفرصة أخرى لنيل فرصة جديدة في حب حقيقي يعمر القلب والروح الحزينة.

..*

عائشة الغزالي

بداية.. لا تعلم من أنا ولا لماذا سأقص عليكِ قصتي واقرأ لكِ مذكراتي، لكن صبراً.. أقرء معي ولن تندم..

سأبدأ من هنا من برنامجي الحبيب، فمن علامات يومي الشديدة الأهمية متابعة برنـامجي المفضـل "شـهرنان"، موعدة مقدس للمذيعة حنان الزواوي أُحِبُ متابعتَه يومياً في تمام الواحدة لـيلاً، وإعادتـه بـاليوم التـالي فـي السادسـة مساءاً.

يخرجني عن دائرة أفكاري ووحدتي، في فترة كانت فارقة جداً بحياتي، كنت أستمعُ إلية وأنا أُرَاقِب من نافـذتي الصغيرة الطرقات بكل ما فيها من بشر وكائنات تتحرك بهدف أو بدونه.

أنظُرُ للسماء لأناجي الله وأبوح له بأسراري وبما أُخَبِئهُ حتى عن أمي، أتمنى لو عُدتُ ثانية لسابق عدي قبل أن أمرُ بما مررت به من أحداث ومصائب وأهوال.

سأقص عليكم إحدى حلقاته كي تحكموا أنتم معي..

شهرنان قصتي أنا أغرب من الخيال، لا بل هي واقع تعايشه المئات من الفتيات رغم ظـن الـبعض أنهـا خيـال، فصديق حبيبي يتقرب مني يفعل كل ما أرغب ويتمنى لرضاي النيل، يسعدني بأمور كثيـرة يحـزن لحزنـي وأكثـر، يتقرب بحنان واهتمام محبب، يحاول دوما رغم الصد والهجر البادي مني!.

أما حبيبي فهو مبتعد عني، مُتجاهل مُتنكر مُتخفي، وكأني قميصه ذو اللـون الأجـرب يعـاملني، أعاتبـة وأجـرح كرامتي بمباشر لوم وعتاب، أحدثه كثيرا وكثيرا لكن ودوما يعلم كيف يُلهيني بالكلمات لأصـمت وأنسـى، ثـم يعـاود الكرة.. لأموت بداخلي مرات ومرات بجنوني، أعاتـب فيكـرر كلماتـه بحنـان يأسـرني، تأخـذني معهـا لعنـان سـماء الحرية وغيمات الأمطار يسكنني، لتنير سحب السماوات نهاري، أرى نجوم لامعه وكواكب ونيازك منحنيـة بجـلاء لي..

معه أعيش حياتي كأميرة أو ملكة لخيالي وقت صفائه، لكنه دوما صعب قاسـي لا يراعـي حبـي، يثيـر لغيرتـي والرغبة لتملك قلبه بسكناتي وخلجاتي.

ماذا أقول؟ ماذا أفعل؟ أيعجبك هذا؟! ها أنت قد أثرت جنوني وتبعثرت مني كلماتي، حبيبي لا تجعلني رجاء أقارن بينك وبين سواك، ظالمة مقارنتي لهم ولك فالخاسر أنت، رغم ذلك متملك لقلبي مسيطر على عقلي روحي مستباحة منك، القواعد لك دوما تُخالف لتفوز بجدارة، فبكل هدوء أغير قواعدي لأمنحك النصر.

يا بشر.. يا شهرنان.. ليخبره غيري بمراعاتي، فالحب رغم جماله متعب صادم قاسي، وأنا منه لا أريد إلا أشياء بسيطة، عمره والروح ملك لي خالصة صافية، هذا فقط والحب الكامل وحياته، أُليست أشياء بسيطة.

معه أشعر بسعادة ولحظات مريحة، مكالمات هاتفية تنسيني العالم والدنيا، أوقات قليلة متفرقة تعوضني حرماني من حب يمثل حب العمر بقلبي، يجعلني أعيش لحظات تنسينا معا آلام توجعنا، لكن أبدا من داخل قلوبنا لن تزيل ما حدث من جراء استئصال غاشم لوجوده بحياتي بعنف ونذالة.

الأمر ببساطة محاولة للالتفاف على شيء حادث يؤرقنا، استمرار لحزن لا سبيل للفكاك من براثنه وشباكه، ما يقتلني صراعي مع نفسي فأنت الحبيب وأنت المنى لكن النصيب ويداك قد حكمتما، أنت هناك وأنا هنا وآه من قدر قد حكم، يتعبني ندائك رغم البعد وإعلانك لحبي وغرامي وتعذبك بفراقي.

لكن ماذا أفعل يا مليكي المنادي بعذاب من بعادي وكل هؤلاء النساء بعالمك؟، تجعلني أتساءل أتبيع وتشتري كسلطان قد ملك صكوك الغرام؟، أم أنك هارون العصر الحالي ومن الجواري الحسان قد وهِبت؟، أورود هن تَشُم وتختار بتنوع ماس وذهب؟، أتعيش الحياة متنعمَ كملك يأمر وينهي يقرب وينفي؟، كل هاتي الحسان بحياتك وتدعي الفقر دون الحبيب المغترب!!.

تستغل سلطانك وصك حبك بقلبي لتؤثر في قرار نصيب قد حكم، تعلم أن في عينييك عالم أعيش فيه عصور غرام، آتيه وأضيع بين أودية وجبال هيام تسكنهما، أغرق ببحار ناعمة من موج حنان ارتواء يحويهما، في عينيكَ رياح تقتلع لأحزاني لتتركني طفل وليد بأجوائك.

في عينيكَ غابات تخبئ آهاتي وترسل لي فرح يعبقني، في عينيكَ دف ومزمار يُسليني لتنطلق من جمر بوحي أشهى الألحان، بهما حب وسهاد يغمرني ينسى الآلام، في عينيكَ عاشقة للغرق مستسلمة لا أريد حتى تنبيه من غافل مر لينقلني لواقع الأيام، من حبك وهواكِ الغالي أنهل شهد لتنير حياتي، أنت عطر أيامي وخمر ليلي الحلال المحترق بوحدة هجر وفراق.

لكن .. أهذا إغراء كافٍ لأنسى واقعك وأعيش داخل أوهامي لأجرح ثانية بأفعالك؟!، هذا صراعي مع نفسي قرب قاتل أو فراق يعذب، حب خائن أم حبيب ضعيف؟، أقترب متناسية واقعنا أم أبعد لأنجي عقلي من هلوسة صراع دون طائل؟.

آه منك حبيبي أخرجني من هذا المأزق اخترت البعد مرة، فلمَ عدت لتشاكس قلبي وروحي من جديد؟، أتحبني أم أنا تسلية لوقتك بحب قديم؟، لم أعد أدري أو أستوعب أحداثي!!..

تعبت وتشتت التفكير بين ما أحب وأريد وما أنا مضطرة لمعايشته يوميا في حياتي، أحب غادر يتباه بغيري وفي الخفاء ينادي بحبي، ولا مجال لأحب شخص أخر ينادي ليل نهار بحبي.

حبيبي لست بديل ومُسكن، سحقا لك!! فأنا لست ببديل عنها، لستُ بِمُسَكِن تنسى به أحزنك أو غدر أصفيائك، أرحل بهدوء ولتأخذ لعبك حبك كلماتك أشيائك، لا يلزمني شخص منقوص مبتور يتلوى في جراحه.

لست بدواء لعصفور مذبوح يئن بمشاعر قاتلة، مازالت تتأرجح بتذبذب بين كنت وأكون يا الله، لم أفقد إيماني بربي ولا أمتطي صهوة حصان بري، جانح أشعث يجري دون لجام وفي مدار الدنيا يقيدني، هائمة دون دليل أو نقطة وصول لأشيائي حبيباتي.

لا أرغب بتنين خلفي يقذفني بلهيبه في كل أوان ومكان، أذهب يا هذا لا أرغب بأنصاف رجال فهو أمر يثير الغثيان، أتهربُ من تَخَفي ودهاء تلون وتلوي الحرباء لتقذفني معها دون مبرر في حرب شعواء.

لستُ ببديل ومُسكن مُطيب فكل هذا هباء، وهيا أخبرني لمَ أحضرت هذه الثالثة أتتلاعب بنا، أتخبرني بأن هناك من تعشقك، من تهيم بأرضك وسماءك ضيائك، من تعشق تراب قدميك وهواء أنفاسك المعطر للروح.

أتحطمني بها لأهدئ وأعود لصقيعي مع أدراج الرياح؟، أأهدَك عقلك لقتلي بغيرتي واستخدم أغبى سلاح؟، أتريد مداواتي بالتي كانت هي الداء أذاك صحيح؟!، أتعتقد بأنه لا يفل الحديد إلا الحديد فتتركني أراها سحقا لك!!.

لمَ تقسو؟!، تعلم أن القلوب بيد خالقها ما أشد قسَوتكَ، القلب معك يوما ويوما أخر سيذهب عند الله يا لغبائك يا رجل!!، أتعتقد بأنك ستجمعنا بحبك؟!، أنعالج ما بنا من مشاعر بعيداً عن عالمك؟!، لمَ أحضرتها لتعذبني وتعذبها ماذا دهاك؟!.

أيا ربي ثبت عقلي وأرحم قلبي من غباء مشاعر وأحاسيس، أيا ربي رتب فوضى غرام يستعمر قلبي، ربي احميني من شرور تتملك نفسي، ألهمني الهدي والعقل الرشيد، يا رب أرزقني من يأخذ بيدي لطريقك القويم.

..*

أرأيتم هذا برنامجي المفضل برنامج قصصي سمعته حينما كنت أعيش بين جدران وحدتي، بلا صاحبه أو رفيقه، بلا أخوه فقط أمي وأنا.

فترة عصيبة كنت أشعر دوما بالتعب.. فقد أصبحت عبئاً حتى على كاهلي المُتعب.. ضائعة.. خائفة لا اعلم مما.. أبحث عن أمان حتى وإن كان سراباً زائفاً.. أشعر بضياع غريب يملكني يتحكم بتلابيبي.. كنت أريد بعض من الراحة النفسية قبل الجسدية فروحي تؤلمني.

يعتصرني أحساس بالضياع والإرهاق، أريد راحة تنعشني تعيدني للحياة.. أشعر بالاختناق من خيالي وظنوني وأوهامي أكثر من واقعي وخنقته.. كنت احتاج فرحة كبيرة تملؤني تعيدني لدنيا البشر كبسمة على الشفاه.. أريد زلزال وبركان يغير خريطة وطريق كل ما أنا أمثله.. باحتياج للشعور بالحياة أولد من جديد أريد أمل للحياة، فنحن بالحياة أطفال، تؤلمنا كلمة، وتعيد إحيائنا أخرى، فأدام الله لنا أحبائنا فهم سبيل نجاتنا.

كنت مهلهلة من كثرة الجروح.. اطلب من دنيتي الراحة والهدوء والموت.. كنت أرى أنها لا تراعي في ذمة أو ضمير.. كنت أسهر اطلب الرحمة فالروح منها باتت تشتكي.. ومن الأنين زادت الجروح، كانت غربتي من نوع الاغتراب الذاتي، اغتراب نفس وليس مكان، هو ألم وتصدع ذات، تخلخل للروح، تفتت لقلب بات من فرط الألم يعاني الهبوط بالروح للحضيض.

كان على المرور بمعركة فاصلة لأنجو مما أنا فيه، بيني وبين نفسي.. موتي فيها محقق وسط كم البؤس والعناء الذي أغرقت ذاتي داخله، سبيل النجاة الوحيد المتاح كان محصور بفوزي بقلب مازن، أو الموت لذا أدعو ربي أبغى الغفران.

اتخذت خطوات دفاعية أهمها البعد عن البشر وعدم الاختلاط بأحد، كثيرا ما تكون المسافات حافظة وليست فاصلة، فلله در بشر بالقلوب أساس رغم استحالة الاقتراب، أو انتفاء تحققه.

كم كنت أتمنى لو اصرخ وأعلنها بصوت عال يكفي، اكتفيت منكِ يا دنيا حد الثمالة، تعبت ولم يعد لدي طاقة، أُرهقت من تمثيل دور الجبارة، صمتا.. صمتا..

أريد لحظتين ضعف عَليَّ أجد بعض من الراحة، اه من وجع سنيني وانكسارات ظهري وضياع عمري، باتت الروح كزجاجة عطر مشروخة، لا انكسرت وأخرجت ما بها لبارئها، ولا هي بالجسد مستقره مستكينة.

لمَ الذعر يا روحي فقدرك مكتوب ومنه لن تفري، ولكن .. اااه واااااه، أعلنها تعبت روحي من كل هذا، وأنتظر الرحمة من ربي القادر على كل شيء.

يا بشر أخبرُوا الفَرح.. يا هذا أنا هنا، هلا طرقت بابي رجاءا، بانتظارك أنا منذ زمن، قلبي منفتح يهلل بسعادة للقائك، انه اشتهاء للقاء السيد فرح، فأنا أعشقك بعقل مجنون، أهواك حياة ووجود، نور وضياء آسر يغطي كل الكون، أسعد الله صباحك ومساك سيدي الفاضل.

..*

شهر نان حكاية اليوم عن قصه حب ليست بين حبيب وحبيبة، هي قصة حب صديق وصديقة أخ وأخت، مشاغبات وجنون صداقة تعيش بين أرجاء الدنيا، ستشاغبنا الفتاة بالحكاية.

صديقي مشاكس يدعوني لأمور تُجِنْ، يرغب بألعاب تُرعب حتى الجن، مؤذي يتمناني قرين لألعابه، مشارك فعال في صولاته وجولاته، لا يدري أني أخاف السقوط من شرفات سماوات عليائه، فمطالبة عاجية النظرة، وأتربه أحلامه دموية، ونجوم حياته نار سحرية تحرق من منه يقترب وينسى بشرية صفاته.

ينسى أني إنسان لي مطالب أخرى، أحلام ورغبات وطرق ودروب بمسالك مختلفة لكنه دوما أناني النزعة، ويعشق مشاغله أحلامي وكتاباتي.

أحب أيضا مشاكسته في حزنه لأُثير جنونه وغضبه، أناديه بدلال وأقول وكأني حبيبة تسكن واديه، يا أنت تعال وأخبرني لمَ تبدو ناحل الجسد وشارد؟!، لمَ أنت ذاهل عن دنيانا؟!، أشعر بداخلك بحر هادر، بوح بمكنون حزنك عليَّ أروح قليلا من هذا المارد، لكني ولأثيرة أنهيها بجملة ألسنا أخوه دين وأحبة كلمة فلا تتركني وتغادر، أعشق نظرته الغاضبة، تلك الهزات الأرضية المعتمرة جسده لمعرفة تعمدي تمثيل دور محبه ببرود.

قد تتملكني حالة عشق بلا دليلا ولا عنوان، فاذهب لاغني له لأخرج طاقتي من هذا الخيال، فهو مثلي ويعلم ألعابي ولا ينسى يوما حاله ليكلفني ونفسه ما لا يطيق، أحب أن أغني له يا أنت قلبك صادق اعلم هذا، قد يدمر ويكسر لأجلي وبسعادة.

قلبك يرسم ويملأ حياتي بكل ما هو جديد مزهر، تظلل لسمائي بغنائك وضحكتك تحبسني داخل روحك بهيام، هل أنت حبيب يعشق دفئي ويتمنى قربي وإن كان الثمن الموت وحيد عن باقي البشر؟!.. صدقا اعشق ابتساماته عند مشاغلتي إياه كي إخراجه من حزنه لكونه وحيد دون حبيب.

أنا وصديقي عزاب لكن خارج إرادتنا، ومع ذلك نعيش وسط زمن عاتي نجمله برواياتنا، نضحك ونقاوم حتى آهاتنا، فنحن من بنو الإنسان أولاد آدم ننتظر الأتي بحياتنا، نحلم وننجح ونفشل ومع هذا نخطط لأحلامنا، عزاب لكننا.. نعيش ببراءة معا لأوقاتنا.

..*

مازالت أتذكرُ تلك الأيام الصعبة..

فهي سبب ما أصابني وحبسني بكرسي ثنائي العجلات لفترة لا بأس بها، لأتحرك بحساب وأغلق على ذاتي، أتقوقع بكل ما تحتويه الكلمة من معان.. حرمتني من حبيبي لفترة طويلة.. ليزيد توحدي مع ذاتي وكوكبي المغلق.. المغلف بالسواد.

أحداث حولتني من طفلة مشاكسة عنيده تبلغ الرابعة عشر، إلى أنثى في العشرين من عمرها هادئة كسولة، لا هدف لها بالحياة.

ست سنوات عشت منها سنتين وسط أجواء حرب أهلية، كنت بقمة بؤسي فيها، ثم ثلاث سنوات أخرى كل ما أفعله هو كتابة كل ما أتَذَكَرهُ أو يمر بي من أحداث، أدون ما أسمعه من أصدقاءنا القدامى، الذين يأتون أحيانا للاطمئنان على أحوالنا، ومن أقاويل الجيران القادمين للزيارة أو لاستلام ما حاكته أمي لهم من ملابس، أو لتبادل الأحاديث في جلسات نميمة معلنه مغلفة بدعوة لتناول كأس شاي.

أُتابع ثرثرتهن عبر غرفتي..

وكيف لا.. فمنزلي ما هو إلا غرفة أقبع بها ليل نهار، ومطبخ ودورة مياه كل منهما لا يتجاوز المترين، وصالة واسعة تحيك أمي بها الملابس للجيران نهاراً، لتنام قتيلة جواري ليلاً، ثم تعاود دورانها في ساقية الحياة باليوم التالي لتستطيع إعالتنا.

بين ليلة وضحاها تبدل الحال، بعد أن كُنتُ "عائشة" تلك المدللة من أباها "عزيز" وأخاها الوحيد "جاسر" وأمها الحبيبة "حبيبة" أعيش حياة رفاهية في عز والدي تاجر المفروشات اليدوية الصنع،، تحولت بعد فراري مع أمي، من الأردن إلى لبنان حيث يُقِيمُ عمي "نواف" لفتاة تعيش عالة علية وعلى مساعداته الشحيحة كل شهر أو شهرين، متعللاً بسوء الأحوال.

يسأل عنا باقتضاب وعن أحوالنا، كأنما يخاف أن نسأله شيء فعلياً، ثم يذهب إلى حال سبيله، ولولا خوفه من تعليقات الجيران وأصدقائه لتركنا دون سؤال.

بعد الحادث تحولت لفتاة كسولة، أخاف الناس والدنيا، قابعة داخل حجرتي تحوطني جدرانها الأربع، فهي أماني الوهمي، أصبحتُ بلا هدف سوى تسجيل كل ما أراه واسمعه بمذكراتي.

حالة خوف من المجهول، فهو أكثر ما يُرعبنا صحوا ومناما، فوبيا البقاء، بطولة الذات العلنية في مقابل ضعفك أمام ذاتك الداخلية، كان الحب والرضا والقناعة والأحلام في حياتي السابقة مصدر أماني، أما الآن ففي دقيقة واحدة واجهت الموت والخوف بكل أنواعه لأتساءل.. ما مصيري بعد الموت، ما الذي قدمته؟؟ وماذا سأنال؟؟

اكتشفت أنني مجرد إنسان يبحث عن الأمان وسط قلوب البشر فلم يجده، تحولت لإنسان يرغب في لملمة شتات الروح، يريد نسيان ما مضى من أوجاع وآلام..

إنسان تائه في ملكوت الحي الديان، واهم حالم متخيلا لكل الآمال، مجرد إنسان محب للخير فاعلاً للآثام، بسيط لديه غرور طاوس، محب للحياة متمنياً لفردوس الرحمن، متأملاً في ملكوت الخالق عابث لاهي في دنياه الفسيحة،

أنا عائشة مجرد إنسان، للحظة أعيش خائفة مما قد يجلبه المستقبل القريب من آلام، للخير تواقة مشتاقة، وللحب والأمان باحثة بجد، للحنان والحب كنت مانحة، فأنا...مجرد إنسان يعيش الحياة مجبراً.

لذا.. أعتدت وضع آلامي بكفن وحنوط تحت أديم الأرض، أرويها بدموع خذلاني وإرهاقي، أغطيها بدعوات لربي القدير، أزورها بين الحين والحين داخل طيات نسيان ذاكرتي، فأجد خالقي الأكرم ولأرحم من عبيده بعبيده عوضني وبدلني عنها الخير الكثير، فيكفيني وجود أمي جواري..

هذه هي الحياة، وهذه هي الدنيا، يوم إحباط أسود كأديم الأرض قاتل للإحساس، ويوم ناصع النقاء كيوم النيروز يملئك بطاقة وحب، أحبك ربي ولدي ثقة الكون كله فيك، لكني متعبة.

..*

شهر نان هل مر عليكِ يوم حبيب غادر أو حبيبة قاتله يصران على العناد وكأن اللؤم في الحب هو الأساس، خبرينا اليوم عن قصة فيها غباء المشاعر هو السائد وما هي نهاية المغدور به؟، كلمات إهداء لمن غُدر بها أو غدر به فالحياة بها هذا وتلك.

انزاحت الستائر عن شخص رائع القسمات كما الأساطير، بعيون ساهية وبصوت رخيم مليء بالقسوة والغرور ينادي على فتاة ملقاة على الطريق قائلا:

يا من تنوح من غدري، وبصخب تثير أقاويل عني، يا من تتغني بأشعار ومواويل تصف هوى كان بهِا يجمعني، صوتك يا هذه بات يزعجني، وقصك لروايتنا الممزقة صارت مؤرقة لدربي، ما عدتِ تسليني بحركاتك، ولا عادت تجذبني أحرفكِ الوردية.

أتريدين سماع حقيقتك عندي، فهلمِ على عجل واسمعي ردي، لن أجمل حقيقتك ومن أنتِ في ردي، يا من كانت ولا زالت لعبة هواها قلبي، يا سخف أفكارك وسذاجة عقلك أنتِ،

أتظنين حقا أنك يوم كنت ملاكِي، وقعتِ بفخي وصرتِ من أملاكِي، اذهبي فوجودك يثير استيائي وسخطي لكيانك، بعد أن كنتِ أمتع نزواتي ولذاتي.

نعم أنا استمتعت بإيذائك أنتِ، ووجدت ذاتي الأنانية فيكِ، عمرت رجولتي بشظايا كسرك، وتطاول بنائي بعمرك أنتِ، علىَّ صوت غنائي على حسابك، كنتِ نزوة من ضمن نزوات حياتي، أضحوكة بها أُكايد باقي الفتيات بسبيلي، ما كنتِ عندها إلا ماء أشربة لأضيع وقتي بين الوجبات، ملخص شرح لاستكمل درجاتي، سلمه أخرى لأصعد عاليا في سمواتي، بوابه أفتحها لأنتقل لأخرى بعد تشبعي ببراءة رحيق رأيته يملئكِ، لم تكوني إلا تسلية وهواية كألعابي، فما كنتِ يوما حبيبة وأمل بأحلامي.

يا أنتِ أنصتي بتمعن، إن عاد الزمن سأعود كما كنت معكِ، لن ارسم براءة لأرضيكِ، فأنتِ كنتِ عندي وسيلة وغاية، ولأجلك استخدمت كل غواية لأصل لمأرب أخرى في دنيا الغاية.

فهيا لملمي أوراقك وأحبارك وكفكفي دمعك، فما أنتِ لي غير مرحلة بنهاية، ونحيبك هذا لا يمثل عندي سوى إزعاج ذبابة، فيا أنتِ ارحلي عن وادي ودنياي.

..*

أتعلمون لكم اشتاق لحياتي بالأردن.. يوم كُنا عائلة لا يفرقنا شيء، يجمعنا الحب والأمل، لم يُنَغِصَ عيشَنا إلا تناحر الحركات الفلسطينية مع أفراد قوات الأمن الأردنية.

والدي لبناني من أصول مصرية لا يهتم كثيرا بالسياسة ومجرياتها، ووالدتي فلسطينية المولد والجنسية، هاجرت للأردن منذ سنوات طوال بصحبة ذويها.

كان أبي يقول عيشوا الحياة بسعادة، لكن تتصنعوا السعادة لا تمارسوا هذا الفعل كثيراً، أكتفوا بالابتسام، فهي كفيلة بحل جميع الأزمات، أما تصنع السعادة، فإما أن يحولك لشبح إنسان وشخص لا مبال، أو يوقظك يوما وأنت تسقط عميقا في بئر أحزانك دون هوادة، ابتسموا بالله عليكم ابتسموا، لكن لا تتصنعوا السعادة، فنهايتها غير مضمونة العواقب هذه الأيام.

تعرف والداي بالأردن، وتزوجا زواج تقليدي كما تقول أمي، عرفه عليها أحد أصدقائه، أعجبته فتقدم لها، عينيها كعيون المها ورثتني إياها، بشعر أسود يتمايل مع تمايل خصرها، لونها الطحيني أثاره يوم رآها فأصر على الارتباط بها، يرى جسدها حصان بري نابض بالحياة، أحبها منذ النظرة الأولى، أو ربما كما يُحب أن يقول ليُغازلها أمامنا مما يُثير غضبها، أنه أحبها من الميلة الأولى لخصرها..

أما أمي فتقول أنها انجذبت إليه لابتسامته الواثقة وروحه الخفيفة، شعرت أنه رجلها الأمين، من تثق في إيداع عمرها بين يديه دون خوف، من تتمنى منحه أولاد يحملون اسميهما معاً، أطفال يرثون صفاتهما معاً بمزيج خاص، كانت تتفاخر أمام الأصدقاء دائما أنها ستنجب له أولاد مميزون.

ورثت منها الشكل وتقسيمات الجسد، بعيون بنيه مسحوبة الجانبان برموش سوداء كثيفة، وجهي بيضاوي يناسب أنفي الصغير، وفمي المرسوم كما زخرفة أشورية بدقة فنان.

ورث جاسر فلسطينيتها الأصيلة، ومن أبي الجسد الرياضي القوي البنية، كان ممن انضموا لأحد الحركات الفلسطينية المتكونة دفاعا عن قضية يرونها أم وهدف وحياة،،

أتذكر بدء حدوث اشتباكات مستمرة بين الطرفين (الفصائل وقوات الأمن الأردني)، وقلقنا والفزع المُتَمَكِن دوما من أمي عند سماع أي خبر، فمنذ عام 1968 وحتى أواخر 1969 وهذه الاشتباكات مستمرة بعنف شديد..

حاول أبي كثيرا ثني عزم جاسر عن انضمامه للمقاومة، ليركز في دراسته الثانوية، حاول إقناعه أنه عن طريق التعليم يمكنه أيضاً خدمة وإفادة القضية، لكن جاسر لم يقتنع أبداً، فقد كان مقتنع أن ما سُلب بالقوة لا يستعاد إلا بالقوة ثانية.. أن التفاوض وهذه الأساليب الدبلوماسية ما هي إلا وسائل يتقوت عليها الضعفاء، وهو وإخوانه ليسوا بالضعفاء.

كانت أمي تهون علينا الأمر وتطمئننا أنا وأبي، قائلة أن الأمور ستكون على خير حال، فجاسر بطل ولا داعي لخوفنا عليه هو رجل بكل ما تحمله الكلمة من معان، علينا التفاخر بكوننا ذويه؛ رغم أنني كثيراً ما شاهدتها باكية تحتضن صورة جاسر جالسة على سريرة، لم تكن تستطيع كبح جماح قلقها بعيداً عنا.

جاء أبي يوما واجما ليُخبرنا بِمَقتَل صديقه مُصعب بأحد هذه الاشتباكات، لتبدأ الأحوال تتبدل وتتغير الخطط، مما أدى إلى أن يعيش جاسر صراع خاص ما بين قضيته وبين حب أبي الخائف والملتاع علي ولده، فهو لازال يراه طفلة الصغير، يجب أن يلهو ويعيش سنوات عمره بفرح، لا أن يحمل سلاح ويتنقل هنا وهناك، يستمر في الهرب من السلطات الأردنية التي تسعى خلفه هو وزملائه.

يرى ساسة الأردن أن الفصائل تحاول فرض نفوذ وسيطرة داخل العمق الأردني، إلا أن جاسر ممن يرون أن القضية هي محاولة إقامة كيان أمن لمن يعيشون خارج أرض فلسطين، كي ينطلقوا بحرية لمحاربة هذا الكائن المُستَولي على أراضيهم وديارهم غصبا وقوة..

ذهبت لغرفته يوماً لأتحدث معه، علني استطيع إقناعه بعيش حياة هادئة كما كنا، فلم أكن من المهتمات وقتها بالقضية الفلسطينية ولم استوعبها وقتها، كل ما كان يشغلني هو قراءة الروايات وسماع الأغاني وارتداء كل ما هو حديث في عالم الموضة.

عائشة: جهزت لك ملابس الغد أتريد شيء أخر؟

جاسر: شكرا جزيلا أختاه.

عائشة: هل أجهز لك شيء تأكله؟ أوصتني أمي أن أهتم بطلباتك الليلة فهي مرهقة وذهبت للنوم باكراً..

جاسر: أهي مريضة ماذا بها؟ سأذهب لأطمئن عليها.

عائشة: لا داعي كانت وليمة عرس ليلى جارتنا اليوم وأمي كانت تساعدهم منذ الأمس، لا شيء أخر لا داعي للقلق.

جاسر: آه حسناً..

عائشة: أمتأكد انك لا تريد مني أي شيء؟

جاسر: لا سلمتِ لي أخلدي أنتِ للنوم.

لم أتحرك من مكاني وتصلبت، لكنني لم أدري ماذا أقول وكيف..، لمح جاسر في عيني ما أريد قولة.

جاسر: حسنا عائشة أدرك ما تريدي قولة، لا أريدك أن تتفوهي به، أنا رجل ولست طفل صغير، أنتِ أختي الصغرى أنا من أخاف عليكِ وليس العكس.

عائشة: تعلم أن أمي وأبي قلقان عليك بشدة، أنا أيضاً خاصة بعد تصاعد الأحداث الأخيرة.

جاسر: عائشة دوما ما كنت أحمي نفسي بنفسي، عند الخطأ أتحمل ذنب أفعالي، أشعر بالقهر والعنف والقسوة مما يحدث لزملائي ولوطني المسلوب مع نفسي، أغضب وأثور وأهدر مهدداً الخونة والظلمة مع نفسي، أبكي وأنكسر بضعف وأصرخ بداخل نفسي فلا سبيل للتعبير عما أريد، حتى سنحت لي فرصة الدفاع عن حقوقي، لذا براءتي وطفولتي خبأتها داخلي فلا مجال لها الآن وطني يناديني، وهذا ما لا يستوعبه أبي.

سأخبركِ أمر أخر لم أرتاح وأعلم ما أريد فعله حقا، حتى خرجت للعالم ورأيت كل شيء على حقيقته بعيداً عن دلال أبي وأمي لنا، صُدمت من أشياء كثيرة، لجأت لغيري لينصحني ويفهمني فتعلمت..

تعلمت كثيراً جدا عن الدنيا والحياة عائشة، أهنت وغدر بي وابتليت بأناس ومازلت أتعب نفسي لأني لا أريد أن أكون هامش في الحياة، كبرت وتغيرت كثيراً عن ذاك الطفل المدلل، أخيرا وجدتني ووجدت هدفي في الحياة ولن أتنازل عنه مهما حدث عائشة.

عائشة: حسنا لكن عدني أن تكون دوما بخير.

جاسر: تذكريني في صلاتك بدعوة حبيبتي.

عائشة: كم ستدفع؟! (قُلتها ضاحكة)

جاسر: قبلة على خدك الأيمن وأخرى على أخاه الأيسر (واقترب مقبلاً إياي في حنان).

عائشة: قبلت تم الاتفاق، أريد الكثير منهم مقدماً هيا زدني هناك خمس صلوات يومياً.. (قُلتها باسمة بدلال).

جاسر: ههه لكِ كل ما تريدين أيتها الشقية.

..*

شهر نان..

هلمِ وابدئي سرد الحكاية، الجميع متشوقون والأسماع إليك موجهة، احضري أبطالك ليجسدوا دون مقدمات الرواية، فُتحت الستائر وهَلَت الحبيبة مناجية الحبيب قائلة:

حبيبي الغالي..

حبي المجنون لعيونك يا أسمر القسمات يذكرني بقصة حُب زُليخه ليوسف الصديق، كم تعبت وضحت ليرضيها رب السموات بنيل مرادها والزواج من عشق العمر، جازفت بالسمعة والثروة والسلطة لتنال قربة، غامرت بكل ما هو مألوف لتنال وصاله.

أتعتقد أني قد ولو لقدر بسيط..

أشبه قصتها بتعلقي وعشقي لك سيدي، ضعيفة أنا لا أملك قواها وعناد تملكها لتنال هوى الحبيب، أتعتقد أني سوف أقاسي في حبك صنوف وألوان عذاب هجر وفراق لضعف إيماني، أني قد أصير يوما جائزة سماوية من رب عليم قادر لأنهل من قربك وأعوض حرماني في قرب يشملنا، أعوض ما فات ويفوت من أيام بعيد عن عطفك وحنانك.

حبيبي..

أتعتقد أني إذا أكثرت عبادتي وقربي لرب العلى يمكنني تغير قدري لأنال حبك وفي يوم أسعد بلقائك وحب حاني يغمرني معك بسخاء، هل سيأتي يوم أشتم عطرك وعبير حناياك واقع حال، واقع فعلي منظور وليس خيال عاشقة مجنونه متعلقة بأشباح وأوهام وجودك بقربها.

حبيبي أتهدئ وتستقر روحي يوما بجوار روحك في سكينه؟، ينطلق الفرح من داخل قلبي ليعم الأرجاء بسعادة وغناء وهناء؟، أتعتقد بصيرورة هذا رغم أنك لست بربع صفات الصديق يوسف وأنا من أنا؟!، فلست بالتائبة الناسكة بعد هوان العشق كالسيدة زليخه ليرضيني ربي بنيل هوى وعشق كان سبب جنوني وعزوفي عن غيرك.

ربي أشكو إليك ضعفي وهواني على نفسي قبل حبيبي وقبل الناس، أرجو عفوك ورضائك ربي فاغمرني بتوبة ومغفرة تنسيني ضعف الحال وتنقلني لمصاف محبيك الأبرار، ربي أشف جراحي وضعفي في مواجهة الدنيا وأصلح لي الحال، ربي عوضني بخيرك عن آثام عشت بها وتمنيتها بحب وترحاب وحنان.

..*

لم يَستَوعِب أخي ولا أصدقائه، خاصة مازن صديقة الأشد قربا لقلبه وقلبي فهو حبي الصامت.. أن أهدافهم تعارضت مع أهداف وإرادة الحكم الهاشمي الإيراني.

وبما أن جاسر لم يستطع مقاومة طلبات والدي بالاهتمام بنا أكثر والتخلي عن أصدقائه، لكونه الوريث لثروته ورجلنا من بعده، اتخذ جاسر قراراً بالهروب من المنزل.. ذهب مع مازن ليقيما مع باقي أفراد المقاومة في أحد المخيمات.. مناضلين لتحقيق أحلامهم.

أبتعد عنا كي يعود لحربة مع زملائه بمنظمة تحرير فلسطين، لتمر الأيام ثقيلة على قلب أمي وأبي خوفا وفزعا على أبنهما البكر.

حتى جاء صباح يوم 11 فبراير حيث وقعت مصادمات بين قوات الأمن الأردني ومجموعة فصائل فلسطينية وتصادف مرور والدي من هناك، ليُقتَلَ وسط شوارع عَمَان، ومعه 300 قتيل آخرين، عرفنا بعدها أن أغلبهم كان من المدنين.. تساقطوا كما قطع الشطرنج دون جريرة سوى وجودهم بمكان لعبة خُبكت خيوطها لأهداف خاصة.

غطى السواد حياتي مع أمي، وأظلمت دُنيانا بعد موت أبي وغياب أخي المُستمر، أُقيل وقتها وزير الداخلية علَّ ذلك يُطفئ فتيل مُشتعل بشوارع عَمَان، لكن الأحوال ساءت أكثر، لنفاجأ بمازن يوماً أتياً يطالبنا بضرورة الانتقال للإقامة في مخيم البقعة مثلنا مِثلُ الكثير، كي يطمئن جاسر علينا كوننا وسط أناس يحمونا، رتب هو وجاسر كل شيء فذهبنا معه بعد حمل ما خف وزنه.

بالتأكيد لم أمانع بل سعدت بالأمر، كنت أظن أنني هكذا ستُتاح لي فرص لقاء مازن أكثر، اعتقدت خطأ أنه يقيم هناك، ووافقت أمي لموافقتي.

سأخبركم عن مازن، هو أصغر أخ لخمس أخوه ذكور، ينتمون للفصائل الفلسطينية وقد استشهد اثنان داخل فلسطين بأحد الهجمات، والثلاث معه في حركة المقاومة بفلسطين، كان يتنقل بين فلسطين والأردن لعمله في التجارة مع عمه منذ صغره، ثم تركه منذ فترة ليتفرغ للإقامة في بالأردن مع أصدقائه لجلب المساعدات لزملاء

كفاحه في فلسطين، والده استشهد منذ صغره ووالدته قامت بتربتهم جميعا على أنهم شهداء منذ الصغر، كانت تخبرهم دوما أنها أنجبتهم ليحرروها هي وفلسطين لا ليعيشوا ضعفاء أو جبناء.

يملك عيون غارقة في السواد، له نظرة ساحرة تلمع في الضوء كما الشمس كلما رأيتها تورد وجهي خجلاً، لابتسم غصباً عني فرحا برؤيته، يداه قويتان تضم يدي بحنان عند سلامة المقتضب، كنت دوما البادئة بسلام اليد لأحظى بفرصة مس كفه، يتحدث بلباقة شديدة وهدوء رغم قوة صوته ناظراً إلى الأرض، وجهه شديد الاستدارة أسمر اللون.

لم أره يوما ينظر لي أو لأمي رغم حبة الشديد لها وكثيراً ما يناديها أمي، طويل القامة مفتول العضلات كما نجوم السينما.

يا ربي دعنا من هذا.. كثيراً ما اعتقدت أنه يدرك إعجابي وهيامي به.. لكنه لا يُظهر أيه رد فعل مما يُشككني في هذا الأمر، اعلم أني واهمة كيف يدرك أمري وهو غارق حتى أذنيه مع أخي في صراعهما ضد الاحتلال الإسرائيلي.

دعنا مني ومن مشاعري الآن ونعود للأحداث السياسية، استمرت الأحداث في التصاعد بمحاولة اغتيال الملك حسين بمنطقة صويلح ثم نجاته من محاولة أخرى لتزيد المصادمات وَقِتَل حوالي ألف شخص خلال عام 1970، ومع هذا استمرت منظمة التحرير في مهاجمة إسرائيل دون مراعاة لرفض الجيش الأردني لتجاهل وجوده، مما أوغل صدور قادته عليهم خاصة أن رد فعل هذا الهجمات يكون على المدن الأردنية ذاتها.

وصلتنا أقاويل وإشاعات عن اشتراك مازن وأخي في محاولة الاغتيال، لكن لم تتح لنا فرصة التأكد فلا هذا ولا ذاك يأتي لنعلم منهما صحة ما يُقال ويُشاع، لتزيد أمي من صلواتها ودعواتها ليلاً لجاسر مقاومة البكاء خوفا عليه، توشي بها شهقاتها التي تتوالي بضعف، فأين هي هذه الأم التي تتحمل إصابة أبنها بمكروه مهما كانت تراه بطل؟، نعم هو بطلها رغم كل هذا القلق والخوف.

واللذان زادا أكثر عندما بدأت الاشتباكات تزداد عنفا، فقد أصبحت أكثر ضراوة وتصاعدت أكثر في 6 سبتمبر 1970 حينما خطفت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ثلاث طائرات متجهه إلى نيويورك..

..*

شهر نان أنا من سأخبرك قصتي، فاتركيني واصبري على حالي وترددي.. أحببت وذبت هياما حد الرقص جنونا على أعتاب عينيه، فما كان منه إلا أن سافر بعيدا عن كياني مدعيا عدم كفاية حبي، لا لنيل تصريح دخول مدينة قلبه، ولا تذكرة سفن خياله، لم يعد من حقي الإشارة إلى أشرعه غرامة الماسية.

حبيبي ابتعد عن هواي، وعليَّ أنا العاشقة الولهانة التعود على مر فراقه وغيابه وحنين أشواقي لعيونه، التعود على أن فرحتي من داخل قلبي أتوهمها، آه يا قيود سجنتني في عقود وأزمان غابرة.

حاولت إفهامه صمتي لم يفهم حبيبي أن به كل الكلام، صمتي بحر غاصت فيه مشاعر صفاء ومودة كانت تجمعنا، فبالصمت سماء تسبح فيها أحاسيس هيام وغرام..

الصمت عالم وكون خاص الوحيد القادر رغم اختلافنا على أن يجمعنا ودون كلمات، هو نبرات وإشارات حوتنا وتنهد قلبينا وسط صمت الآهات، لكنه تركني ورحل.

حبيبي.. يا عشق يسكنني ويتسلل بخلايا الدم كنمل أبيض ينغزني، يا دبيب النفس ببرود تتنزه بخفوت داخلي، يا حب يستعمر عمري ونبراتي، يا كلمة تستأثر بنصيب الأسد من كل حكاياتي، يا من شذب هياكل خيالي بسطو على أعلام أحلامي الرفرافات وشكلها كما يترائي لخياله.

يا شبح من ماضي سحيق زمن روميو وجوليت وغراميات شكسبير وفولتير يجمل كتاباتي، يا من روي عطش ليلي بغزوات أساطير تحتل النفس والتكوين بهدوء السلاطين، ألا أخذت ظلك مني..

أنا ما بين فكرة وأخرى أتنقل بين سحب خيالي معك، أسبح وأطير لألمس قمر أحلامي بين أحضانك، لكني ودوما أسقط مستيقظة على فراقك، لأبدأ من جديد خيالاتي معك، وفي كل بداية عالم أخر يولد ويتكون بين فكرة وأخرى لأظل معك.

شهرنان.. بعد رحيل الأحبة نموت حينا وندعي الحياة حينا، ففي النهاية لا يموت من الحب كثير، ونحيا الحياة شئنا أم أبيا رغم أنوفنا، وسط جراح وظلم يعشش في قلوب المحبين بعنف، ولن يكون هناك بديل لمن نحب.. لكنها الحياة دوما تسير.

أيا عيونا بالدمع الغزير دوما تسيل بوجع وأنين، أما أن الأوان للكف عن النحيب والعيش بعيدا عن عالم المنكوبين المكروبين المزيفين، أما آن الأوان أن تعيشي بفرح وهناءً تاركة للفرح والابتسام في الأجواء لمن حولكِ من المغرومين..

أتركي البكاء والعويل، أرحلي لعالم السعادة والحنين، عيشي باقي حياتك مودعة لزهورك ولليلاسمين في قلوب المحبين العاشقين، وحتى للأعداء الحاقدين..

أزرعي الجمال والحب في عيون أحبتك لتزدهر بدلاً من الذبول والعبوس في وجه السنين، ما الحياة إلا أمور قد جرت بها المقادير والسنين، اقبليها واستمري في الحياة مع المطمئنين..

أسعدي وأسعدي وأرتقي ونالي من محاسن الدنيا بكل خير وحسن المحبين، احصلي على ما كتب لكي وعليكِ يا عيني الحزينة لا تبكي.

..*

المختطفين أجبروا اثنتين من الطائرات المختطفة على الاتجاه لمهبط في الأردن والثالثة اتجهت للقاهرة ليفجروها عمداً، ثم بعد ثلاثة أيام خطفوا طائرة أخرى وهبطت أيضا في مهبط دوسون "قيعان خنا"، وذلك لمحاولة إطلاق سراح معتقلين فلسطينيين بالسجون الأوربية..

رُفض طلبهم فما كان منهم إلا أن أطلقوا سراح الركاب، وفجروا الثلاث طائرات.. ثم أعلنوا إقامة سلطة وطنية فلسطينية داخل الأراضي الأردنية، لتبدأ رحلة نهاية وجودهم تُخَط وتُحدد.

أخبرني مازن فيما بعد أن صديقة عيسى والذي كان مع المختطفين، قص عليه مدى توترهم داخل إحدى الطائرات ما بين عدم رغبتهم في تفجير الطائرة وعدم إيذاء الرهائن، وبين قرار مواجهة السلطات الرافضة لمطالبهم ومحاولة إجبارهم على قبولها، هو ما أوصلهم لهذه النقطة، مرت عليهم ساعات عصيبة، حتى أعطاهم القائد أمر بالإفراج عن الرهائن وتفجير الطائرة..

مما أدى إلى أن تُقرر القيادة العامة للقوات المسلحة الأردنية بعمان، ضرورة توجيه ضربة استئصاليه ضخمة إلى المنظمات الفلسطينية داخل المدن الأردنية.

بالتبعية شُكلت حكومة جديدة وكّل إليها أمر تحرير الرهائن بباقي الطائرات وتصفية وجود الفصائل الفلسطينية العسكري داخل المدن الأردنية، التي أصبحت تشكل عبئ كبير وسبب للفوضى داخل الأردن، وهذا ما حدث بالفعل فيما بعد.

فقد باتت المطاردات بين الأمن والفصائل مُعلنه ومستمرة، أفراد الفصائل مطلوبون أمنياً، يتم القبض عليهم والتحقيق معهم عن أنشطتهم بكل السُبل، حياتهم أصبحت كابوس مرعب، تحولت حياتنا نحن أيضا المنحدرين من أصول فلسطينيه وأهالي أفراد الفصائل إلى مسلسل رعب، ما بين التقطع خوفاً على من منا ينتمون للفصائل، وبين رعب الحياة ذاتها وسط خضم هذه المطاردات الأمنية.

قامت الحكومات العربية بتهديد الحكومة الأردنية, وكان ضغط الشارع العربي يتزايد, إلا أن عملية الحشد حول عمان والزرقاء استمرت لمطاردة الفصائل.

أُرسِلَت الحكومة الأردنية مجموعة من الضباط إلى ياسر عرفات للمفاوضات, الذي رفض وأرسل محمود عباس للتفاوض عن الطرف الفلسطيني.

لم نكن نعلم وقتها أن، الهدف من هذا التفاوض هو إعطاء الجيش الأردني الوقت الكافي لنصب المدافع في مواقع حساسة وإتمام عملية الحشد، بالإضافة إلى إعطاء صورة بعدم جدية الجيش الأردني في القيام بأعمال عسكرية, حيث سُربت أخبار فيما بعد أن تطمينات عربية كانت قد وصلت إلى عرفات تؤكد عدم جدية التحركات العسكرية الأردنية.

لكن ما حدث في اليوم التالي هو أن بدأ الجيش بتنفيذ خطة "جوهر"، حيث بدأت الدبابات والمجنزرات الأردنية بالقصف المدفعي العنيف على مواقع المنظمات الفلسطينية.

قامت المجنزرات والسكوتات باقتحام مخيم الوحدات ومخيم البقعة ومخيم سوف في عمان ومخيم الزرقاء، لازالت أصوات الطائرات وسقوط القذائف من حول تدوي في أذني كلما تذكرت هذه الفترة، مصحوبة بأصوات فزعة لجيراني، كانت الدماء تتناثر حولنا في كل مكان، كل شيء يطير، رائحة احتراق المخيمات تخنقني، الصراخ والعويل بكل اتجاه، بحث الجميع عن الجميع.

..*

شهر نان يا مغردة وسط قلوب العباد، يا مشاغبة ومداعبة لأذان عشاق القصص والروايات، قصي علينا عن ذلك الباسم القسمات والهادئ النبرات، موزع فرحته على كل من هو قاص ودان، هاك الرجل صاحب الضحكات المغرقات، المشاكس بطلته لفؤاد العذارى وأجمل الجميلات، احكي عمن هوته وملكته العمر تاج، ورأته نبراس ومنار بالحياة.

شهر نان منادية هلم يا أنت يا مشاغب، يا من لقلوب الفتيات بدفء دوما يداعب، يا مشاكس لأقاصيصي وحكاياتي هلم واخبرنا قصة حبك الأثير، احكي عن تلك الفاتنة الناعمة سارقة قلبك الرفيق.

هَلَ الوسيم بضحكة خافته وإشارة موافقة، ليبدأ الحديث بلسان حال تعيس ليخرج من ماض ظنه سحيق حكايته وما آل إليه مآلهما في الختام، شارد الذهن متألما لتذكر جرح بقلبه لا يزال وما يزال وسيزال فقال قصتنا تحكي عن شخصان جرحا فقد:

رأته ملاكا ورآها نهر الكوثر، فاعتقدا أنه حب أعظم مما قرءا أو سمعا، قصة قد تروى بكتب التاريخ البشري كعلامة فارقة في زمن القهر البشري، ظنا حبهما أكبر من أن يُمسخ وتتشوه ملامحه بمرور الأيام، أن طائلة قلوب البشر من حسد وحقد لن تلفح أطرافه أو حتى تضربه، لم يتصفح آيا منهما على الخلق ليحميا حبهما من فضول الغير.

اعتقدا أنهما زاغا عن عالم يتحامق مع دنيا العشاق، عالم يسير متسكعا بين الأحبة ليعيث فسادا وإفسادا، وبشغف يتصرف بِضعَّة ليشقى الأحباب، يأخذهما خفافا بين كفيه ليرميهما ثقالا بحمولة ذنب عشق لا يرضى هواه، ولترى الهامات باسقة للعلن تتقصف عقابا للعيش داخل أحاسيس ومشاعر بريئة.

سُنت سيوف ضاربة في عمق الروح رجما بهدوء وغضاضة، هَوَّلْتَ الدنيا لمَ رأته من حب يسكنهما كيف ولماذا يصل لخوافق السموات والأرض؟، قررت فصل قوات انتشار حبهما، التوت عليهما وطوت سجل الحب وبدأت ترسلهما لقفار مشاعر ملل وتبرِم وضجر وحنين، بدأت ترسل لمجالهما علل وبلاء مشاعر منغصة، أفرغت كبت سنين الحرمان وشقاء حياة.

قالت ما بينكما مثَارُ عتاب وملام بين البشر، هو انتشاء باطل وأحاسيس مُبْهمَةِ، لم أسيغ حبكما بيدي لذا وجب عليكما فراق وبعاد كعقاب، حبكما سيدفن بالورى بمشاعر فاترة ويوأد مثل النوار، بدقاق التراب أنَهَدَّمْت عليه تمزقه.

قالت يا مقدام أنت وحبيبتك لا تخْتَّال بحب وسيم تملكانه مرتفقا بيديك، حبك بنظري فتنه من بلور سأفرفره ليتكسر، سأترككما متهاوي الأحزان قشة في مهب الريح تنوحا، سأصل لأغوار نفسيكما لأزيل نزاعات تجذبكما وتحميكما مني، حبكما غَضَّ وطرَّي بمواجهتي سأتركه حطام، سأطوح مجاديف نفيس مشاعركما بشراك وحبائل محبكة تحرق حبكما وتتركه رماد، ما برحِت الدنيا تلاعبهما حتى وصلا لتبادل عبارات للثم جراح تغطي حب متمكن بالقلب.

آه يا حب متخفي خلف قناع لا مبالاة تفضح وبشدة فرط مبالاة شديد بهوى ضائع منهما، أنضجهما مرور الحب وكأنه جاء زائر ليزيل مراهقة مشاعر كانت تأسرهما داخل أقفاصها، ليتركهما أنثى عاشقة ذابت في حبيب حد الهذيان، وحبيب صلد في مواجهة الأيام.

تركتهما الدنيا يحاولان تأويل ما حدث ويحدث، علهما يوما يفيقا من حب ضاع وسط أشلاء الأيام، علهما يوما يعالجا صدَّعْ شادخ في زجاج القلب البلوري، يصفيا الروح مما اختلج النفس من تيه وعذاب.

..*

لازلت أرى داخل طيات ذاكرتي مشاهد وصور جيراني من سكان مخيم البقعة وهم قتلى، تناثر أشلائهم من حولي، أتذكر سقوطي صارخة من آلم رهيب أصابني..

عندما شاهدتني أمي أسقط أرضاً ما كان منها إلا أن صرخت بكل ما يعتمر قلبها من وجع.. شعرت في صرختها الفزع المُطبق.. أتتني مهرولة لتحتضنني.. أغمضت عيني حاضنه صورة أمي بين جفوني..

أفقت بعدها لأجد أمي الباكية بجواري.. تبكي.. وتقرأ القرآن..

تهلل وجهها فرحاً بعودتي وإفاقتي.. نادتني: عائشة.. عائشة آه حبيبتي كنت أخشى موتك.. حبيبتي أنتِ كل من تبقى لي في هذه الحياة..

لأغمض عينيي وأعود لنوم طويل، أخبرتني أمي عندما أفقت أني نائمة منذ ثلاثة أيام، أفيق لأنام وهكذا.

ثم جاء وقت معرفتي بأسوأ ما حدث لي عندما أخبرتني الممرضة في اليوم الرابع بأني قد أُصبت بالشلل، وذلك عندما أخبرتها أنني لا أستطيع تحريك قدماي فتبرعت بمواجهتي بالحقيقة وبأني أصبحت طريحة الفراش، قعيدة لإصابتي بإحدى الشظايا في عمودي الفقري، دخلت أمي وهي تُخبرني وفزعت لكنها فوجئت أكثر ببرودة رد فعلي.

لا أعلم لمَ استقبلت هذا الخبر ببرود غريب، بل الأغرب هو معرفتي خبر مقتل جاسر أثناء الاشتباكات فلم تبكِ لي عين، أو حتى يطرف لي رمش، أمري عجيب. لا أعرف لمَ وهو الأخ الرحيم العطوف عليَّ.

هل قتلت الدماء.. ومناظر القتلى، إنسانيتي ومشاعري؟؟!!،، هل أصابني تبلد أحاسيس؟!، لا أعلم!!..

الآن أنا إنسان ميت.. مجرد بقايا إنسانه، داخل جسد يتنفس ويأكل فقط لإرضاء أمي حبيبة، فقط لأجل أمي أعيش..

جاءني الطبيب تسبقه ممرضة للاطمئنان على أحوالي، لفت انتباهي نظرة الطمأنينة في عين الطبيب، كان يبدو شديد السماحة والطيبة، وكأنما هو ملاك نزل إلى الأرض ليطيب جراح مرضاه،

يبدو جاداً بنظارته الطبية المستطيلة الشكل، ملامحه السمراء تأسر الأنظار لتنتبه له، يبتسم بهدوء ووقار، ورغم توتره لكثرة المرضى، يبدو رزين.. منمق يتحدث بكل لباقة، بعث في كل أرجائي إحساس رهيب بالأمن والأمان، اعتقد أنه يبلغ الثلاثين أو يزيد قليلاً.

طلب من ممرضته الشقراء ذات القامة النحيفة القصيرة، أن تهدئ ولا تشاكس في المرضى حولها فهي تبدو فتاة صغيرة لا تتعدى العشرون عاماً، وطلب منها أن تعطيني مسكن كي أعود للنوم، خاطبني قائلا:

أسمك "عائشة" أتعلمين معناه قالها مبتسماً بهدوء، أعلم أنكِ غاضبة من كل ما حدث، خاصة إصابتك لكنني أردت طمأنتك بوجود أمل في عملية جراحية تعيد حياتك لطبيعتها، أريد أن تعلمي أيضا أن الاحتمال ضئيل كما أنها عملية خطرة،ولا يمكننا إجرائها هنا، لذا عليكما التوجه إلى مصر وسأعطيكما بيانات طبيب هناك تذهبان إليه، عليكٍ التشبث بالأمل.. فعليه نعيش، ما حدث ليس بنهاية العالم عائشة.. الأمل سر الحياة فلا تفقديه صغيرتي الجميلة..

لم اهتم بما قال، فأين أنا والذهاب إلى مصر، خاصة بعد ضياع كل ما أريده في الحياة، ثم نكت من أثر المخدر.

طالت إقامتنا بالمشفى، وكنا نتسمع الأخبار عما يدور بالخارج من المريضات الأخريات، أخبرتني إحداهن بأن ضرب قوات الأمن كان عنيفا جدا وقُتل الكثير، وأصيب أكثر، ولقدري كانت تعرف مازن فأخبرتني أنها سمعت بأنه أصيب بشدة، وهناك أقاويل أنه قد مات، لأصرخ بصمت.. مات أبي، مات أخي، والآن مات حبيبي.

كي لا أُظهر لأمي جزعي حاولت التلهي عن حالي بتجميع أخبار كل ما حدث في أيلول الأسود، لأضيفه إلى ما بدأت أدونه في مذكراتي كنت أخفيها عن أمي، رغم علمها بتدويني لهذه الأشياء لكني لم أشأ إعادة نبش ونتأ جراحاتها من جديد..

كتبت فيها وسَرَدتُ كل ما حدث.. وما استطعت تجميعه من أخبار من الصحف وذوي زميلاتي المصابات، أو ممن يأتي لنا من العنابر الأخرى من الرجال ممن يُصاب في هذه الاشتباكات،

أخبرني أحدهم أن فرق المشاة اجتاحت شوارع مدن الزرقاء وعمان وإربد لتنقيتها من المسلحين، حيث حدثت معارك ضارية فيها, وكان لشدة المقاومة في مخيم الوحدات السبب في دفع القوات الأردنية إلى زيادة وتيرة القصف والضغط العسكري،

هناك حيث قُتل جاسر ومازن، لا أريد تذكر تفاصل مقتله، لم يصف كثيراً ما حدث إلا انه قال أن الأمر كان شديد البشاعة، أخبرني أيضا أن الانتقادات العربية للأردن زادت لكن قابلتها الأردن بالتجاهل.

ألقي الجيش القبض على معظم قيادات المنظمات، وفر ياسر عرفات متنكرا بزي خليجي مع وزير الخارجية التونسي الباهي الأدغم، بالرغم من أن المخابرات الأردنية أوصلت معلومات على أن ياسر عرفات يحاول الفرار إلى خارج الأردن إلا أن القيادة السياسية في الأردن طلبت تركه وشأنه، عل هروبه يُخفض من وتيرة المقاومة ويكسر شوكتها.

..*

شهرنان تعال لأخبرك قصتي فأنا من سأروي اليوم الحكاية، أنا العاشقة العنيدة لرجل أصابني بجنون حب صارخ، أنادية واقترب فيهرب خائف من براكين وزوابع حبي العنيف، يتجول سائحا في البلاد يشكوا للعباد من حبي الكبير ويراه بحر موجه مغرق، سأحضره ليسمع معكِ الحديث فهو بالقلب والعقل الملك الأثير، لا ملجأ ولا مهرب له مني مهما كثر منه التذمر، ولو استصدر أمر من سلطان الأساطير.

اقترب وتعال يا حبيبي، اخبرني أتشتكي من فرضي لسطوتي على أحرفك وإنارة ليلك الباكي الشاكش؟!، أتريد انسحابي من قلبك المظلم بدوني؟!.

أنت يا عائد إلى الحياة ببريق أنفاسي بوهج عيناي وكلماتي، أتشترط شكل لحبي وعشقي؟! أنا المعجونة بالجنون والشقاوة، أنا الغجرية وسط برودة قلبك النحاسي، أنا نسمة الألماس على صدئ قلبك الحديدي، بتطرفي وهيامي أظهرت معدنك الذهبي يا هذا، فهل ما زلت تشتكي تطرف حبي؟!!

استوعب هذا كلماتي خيال واقع وواقع خيال، كما وجودك في حياتي حبيبي، فأنت كما يوتوبيا مدينه أفلاطون المثالية فكرة متعمقة بداخل ذاتي؛ لكن وجودها على أرض الواقع أمر صعب شديد الصعوبة في التحقق، والغريب انك ترضى بذلك باستمتاع شهوة ملحة، لكن لا تفرح فأنا سأصنع المستحيل وأحقق المعجزات لنكون معا.

لهذا لا حديث بيننا ولا ملام، لا حروف ولا كلام، اخترت الاختفاء فعليك مني السلام لكن لا مجال لك للاختفاء، لا هزر ولا صور تراها مرسلة مني لك في المنام، فلقد أعلنت عليك الحرب، ومنعت الوئام حتى تعلن حبي لكل الأنام، وفي نومي سأشكل معك أنت قرين عشق بهيام، وفي الصحو وبأحرفي سأهجوك حتى تعلن استسلامك للوجد والغرام.

يا رحال متجول بين القصائد والأشعار، لمَ أصبحت حزين ووجهك شريد وحيد؟، يا غريق الأحرف والكلمات وسباح العبرات والعبارات، لمَ الآهات وإعلان الجروح الصارخة مع النبضات؟، لمَ عذابك الصامت المتفجر قنابل وهاجة بعيونك أنات قاتلات؟، لمَ الاستسلام يا قتيل خيالك السفاح لسرد الروايات؟، أعلن حبي وسترى الليالي الملاح لأنسيك ما مضى لتحيي الأتي بكل سماح.

..*

سمعت أيضا أن القوات الأردنية سيطرت على الأرض واستسلم أكثر من 7.000 من المسلحين الفلسطينيين وقتل الآلاف من الطرفين، بعد مؤتمر القاهرة الذي من خلاله خرجت المنظمات الفدائية من المدن الأردنية كاملة لتتجمع في مناطق أحراش جرش وأحراش عجلون مقابل عدم اعتراض الجيش لهم.

قررت أمي ترك البلاد والفرار لأبعد ما يكون، كانت تريد منا الذهاب للقاهرة للبحث عن علاج لحالتي لكنني لم أجد داعي لذلك ولم أوافق، في النهاية أقنعتني بالسفر إلى لبنان للإقامة مع عمي نواف، استطعنا بمساعدة أصدقاء لأخي جاسر السفر او بالأحرى الفرار إلى لبنان، ورغم الصعوبات التي نالتنا من التنقل برا إلا انه كان السبيل الوحيد، فلم يعد لنا بالأردن إلا ذكريات قاتلة بحلوها ومرها..

مجرد ذكريات منها السعيد حيث الأسرة الراضية القانعة بحياة سلسة اعتادوها، وذكريات مقابلة لأمي ولي تغلفها الدمار والأشلاء بكل اتجاه، ذكرى تركت أثرها علي جسدي بهذه الإصابة التي قتلت فيَّ الروح قبل الجسد، لا أعلمُ ما ينتظرنا ببلد مثل لبنان خاصة أنها تعاني الحرب أيضا؟، وكيف سيستقبلنا عمي نواف؟، فهو لم يرنا مُنذُ سنوات، لكنه يبقى أملنا الوحيد والسند الباقي على قيد الحياة، كانت أمي متفائلة جدا بسفرنا إليه، عقدت آمال كبيرة على وجودة في حياتنا، أقمنا بالجنوب اللبناني عند وصولنا، واستضافتنا أحد العائلات شهر حتى رتبنا أمورنا، كانت العائلة مكونة من زوجان طاعنان في السن، يقيمان بمفردهما بعد أن تزوجت البنتان وسافرا للإقامة والعمل في فرنسا، أما الابن الأصغر فقد سافر للعمل في أميركا مع عمه حيث تزوج هناك وأنجب طفلين.

ثم انتقلنا للإقامة ببيت خاص بنا وفره أحد أصدقاء جاسر، وأخيرا توصل أحد المعارف لمكان إقامة عمي، فقد بدل مكان إقامته المعروف لنا منذ زمن ولم نكن نعلم الجديد..

أرسلنا إلى عمي أحد الجيران، فجاء في اليوم التالي ليرحب بنا وعدنا بالكثير، بعد ان سردت عليه أمي ملخص ما مررنا به، ثم شرحت له حالتي وما وصلت إليه من اكتئاب وتقوقع، داعية إياه لإقناعي بالسفر معها للقاهرة لإجراء العملية الجراحية..

كانت تعتقد أنه سيضغط علي ويمارس سلطاته كعم ووصي علي لإجباري على السفر للقاهرة وإجراء العملية الجراحية، فوجئت به يتفق معي بعدم جدواها، وأنها مجرد هدر لأموال دون داعي، فلو كان منها فائدة لكان الطبيب أجراها بالأردن، لكنهم أرادوا طمأنتنا فقط.

سمعت أمي تجادله وأنا في حجرتي، كم وددت أن أخرج لإخبارها ألا تجادل فهو على صواب.. لكنني.. لم أجد لهذا بد، لم أكن أريد رؤيته أو رؤية أي شخص.. نادت على أمي في النهاية لأسلم عليه وعندما لم أخرج إليهما، أحضرته هي إلى ليُسلم عليَّ داعيا لي بالصحة والسلامة.

ذهب ويأتي على فترات متباعدة، متعللا بحمولة الكثيرة وصعوبة الحياة والظروف القاسية، فأولاده الخمس مازالوا صغار بمراحل التعليم الأساسية ويحتاجون لمصاريف تفوق طاقته..

..*

يا شهر نان يا ناعمة، يا حاكمة للمشاعر في كل البلاد، هلمي هنا وتعالي لأخبرك عن حبي وما ناله من خطوب الزمان، اسمعيني ولا تتحدثي فأنا من ستأخذ مجال الحديث لأقص بوح كالبحر كلمات وكلمات سأخبرك عما حدثت به الحبيب يوم عاد بعد الغياب ومفارقة سماء ليلي بعناد:

عُدت تبكي وتنوح لافتقاد وجودي بحياتك، تغطيتي لمشاعر ملكية كانت تشملك والآن تؤرق ليلك، عُدتَ لعدم كفاية ما تقدمة حلالك من مشاعر حب واهتمام، تمني مزيد من الحب يأتي عبري، رغبتك في روابط كانت يوما تحكمنا بخيوط ذهبية بأشعة ماسية صارت الآن بيت عنكبوت وطارت هباء منثورا.

رابطة مشاعر لم تصمد أمام رغباتك أنت قبل إغراءات غيرك بتبديلي وحب أخرى تتوافق وشروط أصحابك، الآن تعود تطالب بحقك في حبي واستمرار ما ضاع بيديك، بفنائي في ذاتك وتتغافل عما صرنا نعيشه بواقعنا المزري، تتجاهل ما فعلت معلنا ضعفك وضرورة احتمالي لأنك مني.

أبدا.. أبدا لن أعطيك فرصة تحويل حب نقى مر بعمري إلى حب عشيق وعشيقة، حب تتبادل أحاسيسه في خفاء الليل، وسط إجراءات وخطوات سطو مسلح وسرقة لكل الأطراف، خيانة عهد منك لحليلتك وخيانة ثقة مني لنفسي قبل الأهل والأحباب، وضع يشبه سقوط في بئر عفن نهايته دوما كارثة مريعة.

حبيبي أبدا لن أقبل تحويلي من زارع للأمل وحياة في دنيا البشر إلى مصاص دماء سالب لمشاعر وأحاسيس تخص الغير دون جريرة، لن أقبل إذلالي بتحويلي لجارية تملكها لإشباع الرغبات، كنت في حياتك ملكة وسأظل وإن كلفني ذلك موت القلب وكسر عناد عقل ضال، آه منك كم أنت قاس وعنيد أناني القسمات، تبحث دوما عن مصلحتك أنت وإن كانت نتيجته إراقة وإزهاق أرواح في سبيل حصولك عليها.

صدقا يوما أحببتك وبكل كياني، دعوت ربي أن يجعلني نصيبك ونصفك بالدنيا وآخرتي، دعوت أن يرزقني حبك ويقربني دربك، آه يا ربي كم كانت أعظم أماني وأحلامي، لكنك وفي لحظة جهل واحدة بعت كل ما كان، ذهبت بعيدا لتبدأ مع أخرى حياة جديدة، لتوهم نفسك بسطر حكاية أخرى بقواعد وشروط تريحك.

لمَ عُدت أجئت تعذبني وتريني وجه أخر يمزقني أربا؟، هل عدت لتريني ذاتي أنا أمام تجبر قلبك؟، أترغب بسحق كل ما في من أحاسيس بشرية تخاف حصول سواك عليها؟، لم عدت أخبرني؟، لن أقبل أن أصبح عشيقة رجل كنت يوما أدعو ربي يرزقني إياه شريك كفاح.

..*

قررت أمي البدء بحياكة الملابس، علها توفر القليل من الاحتياجات، وكنت أنا في المقابل أتقوقع أكثر، أقضي يومي بحجرتي مستمتعة بالكتابة في مذكراتي، لما أستخلصه من أقاويل وحكايات الجيران وزبائن أمي، ولأبدأ في متابعة مذيعتي الأثيرة حنان وبرنامجها "شهرنان" وعندما تنتهي الحلقة أكتب ملخص عنها في مذكراتي أيضاً، بقى الحال كما هو والحياة تسير برتابة حتى جاءنا..عاصم صديق جاسر، ليطمئن على أحوالنا، سعدت بسماع صوته فهو يذكرني بأخي ومازن رحمها الله، خرجت لأول مرة استقبل شخص واستقبلته مع أمي، أخبرنا أنه استقر أيضا هنا في الجنوب، مصطحباً عائلته معه.

أُثارني للجلوس معه حتى موعد انصرافه بما سرده من أحداث الأردن بعد فرارنا، فقد قال بأنه ما هي إلا شهور قليلة مرت على الاتفاقية، وسرعان ما دب الصراع مجدداً، بعد أن ضاق سكان القرى في مناطق جرش وعجلون ذرعاً بتجاوزات الفدائيين هناك فهم لم يعتادوا هذا الأمر سابقاً.

أبلغوا عنهم السلطات وقدموا شكاوى لرفضهم تواجدهم بينهم، استغلت السلطات الفرصة وانتهزتها حيث اجتاحت قوات الجيش الأردني الأحراش وهاجمت رجال المقاومة، قضت على آخر معاقل منظمة التحرير الفلسطينية وباقي المنظمات وكسرت شوكتهم وأزالت وجودهم هناك إلى الأبد.

لكن ما زاد الطين بله أنه في شتاء 1970، قامت سوريا بمحاولة التدخل للدفاع عن المقاتلين الفلسطينيين, كان التحرك السوري لحماية منظمة التحرير غير مخطط له ومعتمد على معلومات مصدرها قيادة منظمة التحرير ذاتها وقد كانت معلومات غير مؤكدة بالمرة، بينما القوات الأردنية كانت على علم بتحرك القوات السورية.

لذا فوجئت القوات السورية بعنف رد القوات الأردنية التي نشرت قوات كثيفة سميت بقوات الحجاب، كبدت القوات السورية خسائر فادحة وانطلق سلاح الجو الأردني لتغطية الهجوم بينما لم ينطلق سلاح الجو السوري.

أُعلن فيما بعد أن القيادة العسكرية السورية قد انشقت، وأن الفريق حافظ الأسد كان محتجا على تدخل القوات السورية فيما يحدث، وأنه هو من رفض إطلاق سلاح الجو السوري، الأمر الذي دفع الجيش السوري للانسحاب مخلفا وراءه خسائر فادحة.

ثم توسطت السعودية لدى الأردن للسماح للسوريين بإدخال شاحنات لسحب أنقاض قواتهم المنسحبة من شمال الأردن.

بعد ذلك قامت الحكومة الأردنية بطُرد الفصائل الفلسطينية إلى لبنان، لتشتعل الحرب مجدداً هناك.

حيث أسس ياسر عرفات ما سمّاه البعض بـ"جمهورية الفكهاني"، وهي منطقة خاضعة للسيطرة الكاملة للمنظمات الفلسطينية داخل بيروت، أخبرنا أيضا أن فتح أسست منظمة أيلول الأسود، التي كان هدفها الرئيسي هو الانتقام من جميع الشخصيات التي أفشلت وجودها السياسي في الأردن, فقامت بعدة عمليات على الساحة الأردنية انتقامية.

لكن ما أعاد إلى بهجة الحياة والأمل في مستقبل أفضل عندما نفى عاصم مقتل مازن عند سماعه أمي تدعوا لجاسر ومازن بالرحمة وأن يوسع الله في قبريهما هما وزملائهم، ليقول لها انتظري.. انتظري لازال مازن على قيد الحياة أطال الله في عمره، من أخبركما باستشهاده ثم أخبرنا أنه أصيب بشدة ولكنه لم يُقتل، انقطعت الصلة الآن بعد كل الهرج والمرج الذي حدث، ولا يعرف أية أخبار عنه أو عن مكان تواجده، شعرت وقتها بالحياة وأن قلبي عاد لينبض من جديد، لابتسم لأول مرة منذ شهور، وينشرح صدري أخيراً قليلاً.

..*

شهر نان جاء دوري، وأنا عاشق أريد عتاب الحبيبة، فاتركي لي مجال الحديث لهذه الليلة.. حبيبتي.. آه منك لو تعلنين رغبتك بحبي، وبأشعار ومواويل تغني لقلبي، يا صاحبة العيون السوداء ورسم الكحل المجنون..

تملكين شقاوة وكبرياء وكأنك بالجان مسكونة ومعجونه، يا أنتِ العيون بك تائهة، يا غاليتي بملكوتك برب السموات أنا مفتون وأعاني.

يا من تصف لحالي بدقة فنان وطبيب نفساني ومن أوجاعي تعالجني، لو أعلنتِ موافقتك على حبي سيكون قرار صائب وحكيم فلمَ قولك أني سأكون عليكِ جاني؟، لمَ تسألين هل سيكون حب فعلي أم أنه هرب مما يشغل بالي؟ وهل يشغل بالي إلا أنتِ يا سر شجوني؟، يؤرقني ظلمك فأنت النادرة وصفاتك ماس غالي، فلمَ أكون لحبك وجميل صنيع مواقفك بائع برخيص الحالِ؟.

صدقا أراك ملاك ينقى لحياتي وطموحاتي وآمالي، مع أني ارتعب من كوني قد لا أعوض أحلامك بقربي وحياتي، كوني لي ملجأ وأمان لا من اختار قتلي بالفراق وابتعد عن أيامي وليالي بقسوة وظلم وهو متعالٍ، معكِ لا أخاف وأأتمنك على ذاتي وكرامة حبي وآمالِي، فلا تكونِ خليفة من دمرني في تدمير ما مني باقي.

أنا عاشق غير العشاق، لست بعاشق أنثى تأسر كلماتي وأحاسيسي؛ لكني عاشق لوحروفي المنطلقة من داخل خيالي رأسا إلى أروقة كتاباتي وأوراقي عنكِ، أنا عاشق للحب ومشاعره؛ عاشق لإحساس الحب والهيام؛ ولفكرة الوله بشخص مجهول؛ عاشق وغيرتي نار بجنون أيا كان سببها أو سبب ثورتي وجنوني.

أنا يا حبيبة القلب رجل يعيش الحب بمجون عفيف وحنون، عاشق لإلهامي ومن يلهمني، عاشق دون عشيقة أو حتى حبيبة معروفة، عاشق دون قيود بشرية لي قيودي الخاصة؛ عاشق يحكمه حلال وحرام وممنوع ومرغوب، أدغال العشق وإحساس الحبيب.

أنا متجول سارح ليل ونهار، وفي كل يوم أبدء مع حبيب خيالي قصة حياة؛ قصة عشق وغرام، في كل يوم أنسج خيوط الحب بيوت حنين، عناقيد فرح وهناء، في كل يوم أكون مع الحبيب فتتحول الدنيا سحاب بين النجوم وسط ضي الشمس والقمر قنديل هوى وعشق كبير، فهلا منحتني حبك لأنهل من عشقك دون حدود.

..*

الفصل الثاني :حياة موازية

نهاية أيلول الأسود

أخيراً انتهت مأساة سبتمبر 1970 الدامية في الأردن بتصفية المقاومة الفلسطينية ضد إسرائيل، استراح الملك قانعاً بثبات عرشه لمغادرة الفلسطينيين مملكته، محتفظاً بقنوات اتصالاته السرية بالإسرائيليين، الذين استراحوا كثيراً من تهديد الفدائيين في جبهة حساسة، تعتبر امتداداً جغرافياً للمقاومة في الضفة الغربية وقطاع غزة.

قالت لي أمي أن الفلسطينيين لم يجدوا أرحب من قلوب أبناء الجنوب اللبناني، لذا أقاموا بينهم، وعايشوا معهم وطأة الاستغلال الطبقي والقهر الاجتماعي والسياسي، لكن مع ذلك فوصول الفدائيين الفلسطينيين سيؤثر حتما على مجريات الأمور،

انتهى فصل مهم في حياتي ليبدأ فصل أخر أشد أهمية في حياة لبنان كلها، سأخبركم عنه مع الأحداث، لا تتعجلوا هكذا.. فمع الأيام صدق حدس أمي وحدثت تحولات عميقة في كل مجريات الحياة في الجنوب، أثرت في الجميع مواطن ولاجئ.

أخبرتني مرة أنها تسمع تعليقات الجيران بأن الفدائيين يقيمون علاقات مع "العامليين" أهل الجنوب ضد العدو الإسرائيلي، ليُصبح الجنوب قاعدة انطلاق لتسللهم لضرب العدو داخل حدوده في تصعيد دائم لا يتوقف، مما سبب صداعاً مزمناً لإسرائيل، تسانده الحكومة اللبنانية، كانت الأيام تمر ببطء وحياتي في لبنان تسير بهدوء ورتابة.

حتى جاء يوم ونادتني أمي مسرعة، ملهوفة..

عائشة.. عائشة هيا استيقظي..

حبيبة: نايف المصطفى.. أتذكرينه؟!! (قالتها وهي تلهث)

نعم أمي أتذكر هذا الاسم، لقد سجلت بيومياتي عنه الكثير، وجمعت قصاصات الجرائد التي كتبت عنه ونشرت اعترافاته وأخباره كاملة، ما به أمي هل هرب من السجن؟!.

..*

شهر نان هلي من جديد

هيا أخبرينا قصة أخرى

أعلني عن حب كان في أدراج النسيان حبيس.

.....

عزفت البهية شهر نان بصوتها أفضل الألحان، وبسحرها أحضرت إحدى الحبيبات، لتقص حكاياتها فقالت..

أخبرتك أنك انتهيت من حياتي، وأخبر أصدقائي ومن حولي بأنك مالك وسر حياتي، فأنت الحب الذي ملئ حياتي عبير وزهور عطور شرقية وفرنسية، أنت كل التضاد الذي عبق حياتي بالفرح والسعادة، قوس قزح دخل حياتي لينيرها ويزينها بألوانه السبعة.

حبيبي البعيد مسافة، والقريب روح وتأثير

أحبك.. أهواك.. أعشقك

أتمنى لقائك.. وقربك

قسم لنا الله بقدرة ونصيبه فراق وبعاد، كما قُسم لك السكن بتجاويف قلبي، ملك متوج تأمر وتنهي داخل سلطنة وإمبراطورية قلبي المحب العاشق.

قلبي الساهر بسهاد يناجيك ويبوح لك بأسراره كل ليله مستظل بأشعة ضياء القمر المنير، متغنيا للنجوم البراقة الساحبة الشافية لأوجاع القلب المكلوم، المداوية لأهات الروح المعانية من جرح حبيب سكن الروح وتملكها بصكوك حب وهيام.

حبيبي أنعم الله على كل البشر بنعم لا تعد ولا تحصى، أحمد ربي عليها لكن فراقك.. أزال طعم حلاوة ما أنعم به عليَّ ليُبدله بمرارة وغصة بالحلق، بسبب هجرك أتمرغ في فراش حرماني منك مهووس مجذوم، فهل يأتي يوم ألقاك لتنسيني ما فات وتعوضني؟!.

آه يا خوفي من ربي ومن سخطي لفراق حبك، أأكون رافضة هكذا لقضاء الله وقدره ونصيبي ذنوب جسام؟!، آه يا الله ألهمني الصبر وعوضني وارزقني من أفضالك نعمة النسيان.

..*

لا عائشة.. سمعت الآن أن نايف ساعي البريد شنقه زملائه بالسجن، جدلوا حبل من ملابسهم، وشنقوه.

شنقوه عشية عيد مولده الثلاثون.

يقول الجيران أنهم اعترفوا بالقصاص منه، حكموا عليه بالشنق فجزاء الخائن مثله الشنق، وليس.. الحبس.

يا الله.. أتذكر نايف وقصته، معرفتنا خَبَرُ القبض عليه، واتهامه بالخيانة والعمالة لصالح إسرائيل..

أين مذكراتي؟؟.. ناوليني إياها من فضلك.. أريد إضافة هذه النهاية لمَ كتبته عنه، لأكمل حكايته داخل صفحات مذكراتي.. كما تعلمون كتابتها متعتي، إضافة إلى ذلك البرنامج الذي يحكي قصص العشاق، وأملي الخاص في عودة مازن.

اعترفت لأمي ذات ليله بحبي لمازن عندما كانت تحاول إقناعي بالسفر إلى القاهرة لإجراء العملية، فقد ادخرت مبلغ قد يكفي، لم تعقب بأيه كلمة، قُلت لها بأني سأوافقها على أجراء العملية في حال عودة مازن فقط، أما إذا لم يُقدر لي رؤيته فلا أريد أي شيء ولا السير في دروبها أياً كانت المغريات.

أتعلمون.. كثيراً ما استيقظ على صوتها مبتهلاً إلى الله، أن يُنجي مازن من أي سوء وشر ويعيده إلينا سالماً، كم أحب هذه المرأة، تحملت وتتحمل من أجلي الكثير.

الآن.. هل أخبرتكم كم أعشق صوت حنان الإذاعية، فهو كاسمها حنون، تشعر معه بعزه وشموخ، أتخيلها أنثى شكل وكيان، وجه صبوح يصدر صوت ذو نهاية كرنة سقوط الذهب على سطح من بلور.

مخارجها ماسية، بحديثها العادي فيروز تصدح بالألحان، عند إثارة غضبها ويَظْهَرُ هذا وهي تسرد الأحداث وتتفاعل معها، صوتها يتحول لأم كلثوم به كبرياء وثقة، تعنف بصرامة الرافعي لزملائه الكتاب.

تجعلك تشعر أنها صياد مستعد للانقضاض على فرائسه ببرامجها، صوتها ببحة خفيفة كما نجاة ينقلك لعوالم أخرى تشعرك أنك غزال نقي السريرة.

عرفت من متابعتي لأخبارها في الصحف والمجلات أنها فلسطينيه في مُقتبل العمر، عاشقة للأدب والفنون، هادئة بجبروت، عنيفة بفتور، هاوية في دنيا التاريخ الإنساني.. لذا تقدم برنامج " شهر نان " والخاص بقصص تحكي عن الحب والمحبين بمنظور خاص بها، أجابت يوماً عندما سئلت من أنتِ فالبعض يراكِ واقعية كئيبة وآخرون يرونكِ خيالية جدا خاصة مع برنامج "شهرنان"؟!

فأجابت: "قد أبدو للبعض خيالية، أعيش الواقع بخيال ورفاهية، أرى الدنيا بنظاره وردية..

أنسجُ بحبالي وأدوات خيالي، أراجيح وجبال وتلال هلامية، تتراقص على أنغام شاعرية، بيوت وعمائر وقلاع منتصبة تسافر وسط غيوم الحرية، أزخرف سماء ونجوم وبحار وفلج مجنحه، أرسم أشجار تزهر حب ورومانسية، وأخط بقلمي أعشاب ملائكية..

أشباح سعادة في الكون متطايرة، وألون هواء العالم بعطور بحرية، وروائح تنبعث برحيق الحيوية، اجلب من بائد الأزمنة طيور وحيوانات منقرضة، اصنع آلات تنقلنا لعوالم متوازية..

أُسَخِر جنً وعفاريت لبناء كؤوس دلع وهوى مزدهرة، اصنع إكسير لحفظ القلوب الملتهبة، ازرع لثمار تطرح للروح المتعبة الأدوية..

اخلط أشياء تصلح شر نفوس الناس، واحصد لشراب رباني للوجد والوله، لأذيقه للعالم اجمع خاصة عشاق الحرية الإباحية..

أبدو للبعض من البحر أتيت كحورية، فأنا أحول حياتي لفلسفات وأمور نفسية، اغوص بأغواري لأُثِير سعادة تبدو نازية، فعلاً أبدو كفتاة من عالم أخر أتيه، قد تكون حقيقة لا خيال من يدري؟!!".

وتحدثت عن نفسها بأحد الحوارات الصحفية مرة أخرى وقالت..

لست من هاويات:أنصاف الأحاسيس والمشاعر الضائعات وسط بعثرة الكلمات، زرف الدموع على من يتصف بالخديعة والرياء وهذه الاختناقات، بعثرة كلماتي وحروفي ومشاعري على تلك الأرواح الهالكات، الاقتراب من الأحبة ضعاف الشخصية أمام المشكلات.

لست من مغرمي:الأحبة الخانعين لسيطرة أحبتهم بعناد وغباء، الارتباط بمن يهوى المرأة التي تعذبه بجفاء، من يسعى جاهدا لنيل رضاء من تبيعه بدهاء، الضائع التائه ببحثه عن حب صاف لا يتملكه رياء.

لست من محبي: المراوغة والتلون حسب المواقف ولا أجيده، تعذيب من يقترب بحجه الحب وسهاده، التهرب من مشكلاتي وكأني مازلت طفله، الهذيان لإظهار صفاتي وموهبتي كمغرورة.

أنا أحب:الحب الواضح الصريح المعلن بعذابه وانطلاقه، حبيبي لأنه حبيبي رغم المسافات الفاصلة بيننا، حبيب تتيه الدنيا ويضيع ما يؤرقني بكفيه، حبيب معه أذوب بصفاء الحب وجماله.

واضافت بأن:"لدي قناعات بأننا نحتاج أحيانا أن نتعرف على شخص أخر يُشبهنا لنهدئ ونستكين، لنكف عن التصرف بطيش ورعونة، نكف عن عفويتنا الساذجة، نتوقف عن إحراج أنفسنا دون حياء، غالباً يكون هذا الشخص هو الحبيب.

يوما ستزهر الورود بقلوبنا، تنتشر عطور معبقة بنسيم البحر، ملونة بنجوم السماء، شامخة مروية بحب وغرام صاف، لأجلنا نحن..

أحب أولئك الذين يغرسون السعادة في أيامنا، الأحلام فوق حد المسموح، أحب كل ما هو صحيح ومضبوط، لا أحب أن أخطأ مع ذلك، ولا أرضى بالموت خوفا أو ذبحا بسبب تقاليد بالية".

..*

شهرنان تهل ملامحها مثارة بفرحة طفل مشاغب، تخبرنا عن حب شقي مجنون الملامح لأنثى ورجل من سراب الغرام، أنثى تعشق الجنون والجنون عندها فنون عاشقة بدرجة قاتله، هي تهوى العشق بعنفوان موج البحار، تترك لها شهر نان مجال الحديث فمعها قد تطول أسلحة الحروف لتقتل كل من يخالف أو قد يناله منها فحيح التذمر لمقاطعه حبها الغريب.

تقول تلك الغجرية المشاعر، إحساس الأنثى سيد قلبي ليس مجرد مشاعر بلهاء، هو غريزة ملئ بحياة تنبض وأسلاك ناقلة لكل الإشارات، تحولها لرموز ومعان مفهومة، هو جسر متفجر وأسوار مكهربة تغتال كل من يقترب وبنيته شر أو سوء، هو إحساس يقوى في ظل الخطر بفقد حبيب أو مالك للروح، وإحساسي دوما بك موصول فأنت حبيب معك أصول وأثير جنون الكون.

أنت يا من تتخفي برداء الدم وتغوي إحساس الأنثى بداخلي وتشاغله، شفتيك لهيب مستعر يجذبني ليُثير جنوني، عينيك المخفية بالأستار قناديل تأسرني، ويا ربي من أنفاسك عطر شرقي يدفئني، بصيف بارد وشتاء ساخن يسجنني.

أشتهي قبلة تضاهي لدغة ثعبان الأنكوندا، خطورة ضمة بأحضانك تحطمني بوزن فيل عملاق، أتمنى دفئ يغلف مسامي كإحاطة عصفور بوردته الحمراء، انتظر عشقك يسكنني كحبات سنبل اخضر ما زال يانع ينتظر الري في وسط الصحراء.

أدعو برعد وبرق يخطفني في صيف أيامي، مطر وثلوج تَكفن سقم وجفاء أحلامي، أعاصير وزوابع تحطم أشيائي بنظرة عينيك بركين وزلازل تهدم لأوهامي، بغيابك انتظرك وانتظر وجود حان وقاسي في نفس الآن.

أعلم أن الأنكوندا قاتل متوحش، لكني أتمنى الموت على عتبات العشق دون ندم، انتظر التحطيم بين أنياب فيل مصارع يهواني، الشوك هو ضريبة حب وبراءة تسكن عشاق ومحبين بصفاء، حتى السنبل سيزهر بفرح في دنيا محبين متخطيا أيه عقبات بالية.

آه من صراع فناء براكين وزلازل وحتى أعاصير وزوابع عشق هي أمطار صيفية وثلوج ناعمة، تفرش ارض العشاق بورود حمراء زاهية، انتظر حبيبي بصفات متوحشة كالبربر أو حتى مغولي الحب، حبيب الرقة عنوان عينية، والجنية هي لون يديه في حياتي، فأنا لا أرغب بحبيب بارد هادئ القسمات، أنا منتظرة حبيب فارس للغرام حبيب عاشق رجل حق يشملنا بحب وحنان ووفاء.

فأنا قلبي عاشق للغموض، وعنيك من تكشفه لحياتي، وقلبي يحب الصمود إذا كنت أنت من تسكنه، يا وردتي المضيئة في عالم الأحلام، يا حبيب أعشقه واقع وخيال، يا عالم وردي يحويني ويشفيني من أية آلام، معك سأسافر في الصباح معي الضي مجال للهروب، لأهرب من البراح واسكن سماء غروبك بداخلي، فأين أنت ما زلت انتظرك؟!.

..*

لازلت لا استوعب ان نايف جاسوس، أعلم أن المنطقة كلها حكت وتحاكت عن هذا الأمر لفترة طويلة، إلا إنني للان استغرب فعله أتصدقي ذلك عائشة؟ كيف فعل هذا؟ كيف باع أهله؟ كان يبدو طيب القلب نقي السريرة كالأطفال، نايف ذاك الثُعبان الناعم الملمس، الساكن الحركات، القاتل النغزات..

انتظري أمي سأقرأ لك ما سجلته عن نايف، وقصته كاملة كما جمعتها من الجيران والجرائد، وكما جاء في اعترافاته بعدما قُبض عليه، أتعلمين أين زوجته الآن وأخوته؟! جللهم بالعار لا سامحه الله، أذلهم وألبسهم شوك الهوان بفعلته تلك، قتل والدته بدم بارد.

هيا تعالِ سأقص عليك قصته؟! أتركِ هذه الأقمشة، وماكينتك العتيقة، وركزي معي..

عائشة اهدئي، فلدي الكثير من العمل يجب تسليمه، سأنتهي وأتي إليك لتخبريني كل ما تريدين طيلة الليل.

عائشة: طيلة الليل، تنامين كما فيل مقتول أمي هيا تعالِ وأسرعي..

حبيبة: يا ربي عائشة لمَ تبدلت شخصيتك الآن وأصبحتِ متكلمة لحوحة، سأعقد معكِ اتفاق، سأتركك تأكلين أذني كل ليلة بعد انتهائي من عملي لمدة ساعة، علىَّ أن تعديني بمساعدتي قليلاً عندما يزدحم المكان بالجيران والعمل.

عائشة: لا أريد، لا أُحب أن أرى أحد.

حبيبة: إذن لُغي الاتفاق، سأذهب لأُكمل عملي.

أمي أصبري قليلاً، انتظريً،أمي أعلن أمامك فشلي في فن وثقافة الترحاب، بهجة وزخم إقامة احتفاء بشهية فرح بعد غياب، قُبلة مقابلة ودمع وداع، فأنا لقيط في علوم اجتماعيات الاستقبال، بِرُقي معزة وغلو غائب، ها هو قيد لمح البصر بعد فراق وليال وجع وعذاب، لكني أفتقد الرغبة والقدرة على حسن استقباله وأفضل كوني وحيدة في حضوره.

نظرت إلي نظرة قاسية وتركتني، يا ربي تريد استغلال الفرصة لتجعلني أختلط بجيراني وبالبشر من جديد، لكنني لا أستطيع، لم يعد لدى هذه القدرة..

بعد صمت لنصف ساعة كاملة، صرخت حسنا، سأساعدك ولكن بعد انصرافهم، كانت هذه الوسيلة الوحيدة لتوافق أن احكي لها.

ما كتبت، سوف انتحر يوماً بفضلك.

حبيبة: حسناً هي بداية، لا مانع انتظريني ليلاً، ولمعلوماتك إذا انتحرتِ سيتزوج مازن أخرى (آه منها قالتها باسمة لتكيدني).

انفردت بعدها بدفاتري، أرتبها لأُحدد بما سأبدأ حكايتي، والكمية التي سأُخبر أمي حبيبة بها، كي ألحق موعد برنامجي المعتاد ليلاً..

وأخيراً هلت أمي ضاحكة، تطلب قصي حكاياتي، كانت سعيدة لأني حضرت الشاي لجارتنا زَينَب حسب الاتفاق الأخير مع أمي.

حبيبة: هيا أبدئي وراعي أني تعبه طيلة اليوم، وأتمنى فرد عظام جسدي المنهك على السرير الآن، لأخلد للنوم، حسنا ابنتي الجميلة.

عائشة: حسناً أمي لن أطيل كثيراً، هي ساعة ثم سألحق موعد برنامجي وأتركِ تنامي بهدوء، هل أبدء؟!

حبيبة: ابدئي..

سأخبركِ موجز عن حياته، "نايف المصطفى" شاب من أبناء الجنوب... فقير الحال، أحب بلا أمل، قادة حلم الثراء ورغبة الانتقام ممن سخروا منه إلى الوقوع في شرك الجاسوسية.

ولد نايف حسين المصطفى بقرية البستان على مقربة من الحدود اللبنانية الإسرائيلية عام 1942، كان أبوه بائع جوال للملبوسات الرخيصة، يطوف بها عبر القرى المحيطة يصطحبه نايف أكبر أبنائه.

فشل في التعليم بعد الابتدائية، امتهن العديد من المهن ولم يوفق، إذ كان لا طموح له، همه الأول والأخير السينما وأخبار الفن، وكثيراً ما كان يهرب إلى صور وصيدا لإشباع هوايته تلك. لمَا مات والده وكان يبلغ الثامنة عشر، توسط له البعض وحصل على وظيفة بمصلحة البريد.

أتعلمين أمي لازلت أتذكر منظرة، هو كما هو تتعاقب عليه الأيام وتتبدل الوجوه والأحوال، إلا هو..

دوما يدفع بدراجته المتهالكة كل صباح حتى يصل التلال والمدقات لإيصال بريده المعتاد... سمعت أنه كان يحب في صغره أبنه عمه زليخه، لكنها تزوجت قريب أخر لها، توفى بعد فترة قصيرة فعادت إلى بيت أبيها لكنها ظلت دوما تصده..

أتذكرين يوم أرسل إليها خطاب وعندما قرأته، خرجت إليه عند عودته من عمله لتمزقه أمامه في الشارع وتنعته بأبشع الأوصاف لأنه لحوح دون سبب، بشع الخلقة لا تحتمل رؤيته حتى البغال.. ليتركها مجلل بالمهانة، يومها سمعت والدته تقول لجارتها انه يختبئ بغرفته باكياً، وأنه أخبرها انه قررً نسيانها..

كل من حارتنا علم ما كان كتبه لها، حتى ما كتبه بعدها رداً على ما فعلته معها أتذكرين علمناه عندما سرقة أخاه الصغير منه واحضره لكِ لتقرئيه له، كان يكتب بأسلوب جميل أمي أتذكرين..

(قالوا بالأمثال "لو دخل كل منا قلب الآخر لأشفق عليه" وأنا.. وصلت معكِ لأعماق العشق والوله والشغف، ولم تحاولِ معي، أشفق على قلبك صدقا لا أبتغي تعذيبك حبيبتي، بهوى لا ذنب لفؤادك في وجوده بالمسكين قلبي، ليس ذنبك أني رسمتك أميرة عمري ونصيبي، فأنا من جني على نفسه بالعذاب والشقاء والسهاد، بحبً محكوم عليه

داخل الروح والجسد بالفناء والرقاد، ارتميت في أحضان سراب مشاعر خداعات، لهثت خلف حلم طائر في فراغ واهي الغفوات.

كنت أبحث عن حب كعنقاء الخرافاتِ ينتشلني، رسمت أميرة مظلله بالسواد تحيطني وتغمرني، عشقت السهاد في خيالات القصص والروايات، صرت أتسمع الأخبار والمغامرات المروية، فتوهمت حكايات أحداث فتوحاتي وانتصاراتي، رأيتكِ لي مناضل مخلص من عذابي وأنيني وآهاتي، أنتِ لم تخدعي قلب عاشقكِ البريئ، يا حبا وهوى ملك الفؤاد بكل أدب واحترام، برئتك من ذنب قتلي بغرام ينتمي للأوهام.

من تعذيب روحاً بالهوى كل ما تمنته أن تلقاكِ، عشقتك حتى الثمالة دون قيد ومازلت أهواكِ، أعلنت حكمي بأني من لطخت بدمائه يديكِ، جبرا وقسرا حاولت باستماتة سلبك الحب والغرام، دون جريرة أو سوء منكِ فأنا من حاول الإيهام.. بعشق إلى قلبك الصافي لا ينتمي، لأيام حلمت بكل ما أهواه وكنت أنتِ الشبيه الأنسبِ، فلتذهبي أمان الله عليكِ حرةً فلم تكوني السبب في هيامي).

ليحدث نفسه آه نايف أنت مجنون ضي العيون، العاشق لسحر الجفون، الضائع والتائه وسط نغم همس الرموش، المسبح تحت عرش عشق يغطي الكون، أنت.. أنت.. وأين هي منك يا مخبول..

ظل يفكر طيلة الليل مستغربا ما فعلت فهو لم يقل ما يُغضب، تذكر ما كتبه عله يفهم سبب ثورتها، فهو غير مقتنع بأن منظره هو ما يجعلها تبغضه هكذا، لتقول له أنها تتقزز منه، وتنفر منه كل شعيراتها.. دوما كنت أرى وجهة عابس تعلوه تلك النظرة البائسة التي تغطي وجهه، كثيراً ما رأيته يودع والدته بصوت عالٍ، كما لو كان يتمنى أن تهم واقفة لاحتضانه وتقبيله قُبلة الوداع مصحوبة بدعاء صاف كدعائك لي حبيبتي "حبيبه"..

أعتقد أن بنظرته تلك كان يقول لها: أمي.. قبليني.. عانقيني، اقتربي.. بحنانك اغمريني، عن العالم.. بوجودك عوضيني، علكِ تخرجي من قلبي وسنيني.. مشاعر تقتلني، واسيني عن أحاسيس استباحتني لتمزقني، بحمق تشاغل لليلي وتؤرقني.

أمي.. أحبتي فارقوا أحضاني، وعادوا بعد اعتيادي الهجران، ليظلموننني.. بعودتهم لنسياني، بعد اعتيادي قرب يواسيني، يا أمي عن أحزاني غافليني، ومن آلامي اسرقيني.

لا يهم كل هذا الآن أمي صحيح؟!، لقد نفذ قضاء الله وقدره معه، أتعلمين طبيعة عمله أن يحمل البريد إلى الضياع والدور المتناثرة فوق السفوح، ليعود في المساء مرهقاً معفراً، كان يبدو من هيئته أن الملل قد خنقه... بدأت

مأساته الأكبر يوم كان يوصل البريد لمنزل عدنان السامري تاجر الحبوب، رأي أبنته فنفذ حبها إلى قلبه على عجل، جلست وتربعت، كان يخرج ليلاً لتقوده قدماه إلى حيث يرى من بعيد منزل حبيبته الجديدة..

يتنسم رائحتها ويتخيلها واقفة في شرفتها، فيستريح ويذهب لينام قرير العين مطمئن الفؤاد، وهو يقول لها: إليكِ أنتِ فاتنة كلماتي، اسرد أحاسيسي ونبض غمر أيام حياتي، حبيبتي الحب احتواء.. عطف.. شغف.. عشق.. حنان.. أمومة.. أبوه.. أخوية.. وصداقة، الحب دنيا وحياة، كان يتخيلها تستمع إليه بإعجاب وحب وتناديه كي تعترف بحبها..

أنت وليس سواك..

رجلي.. وآمالي.. عشقي.. وهواي

أنت وليس سواك..

غرامي.. وهيامي.. حناني.. وأماني

سكني، وسكاني

أنت وليس سواك..

من بهواه امتلكني

اخترته واستحقني

عشقت وعشقني..

من له.. شبابي وعنفواني

يا قمري ووجداني

يا شمس هنائي.. وصوت غنائي

أنت وليس سواك..

من روحه وقلبه.. مطلبي ومغنمي

أنت وليس سواك.

..*

نفتح كتاب ألف ليلة وليلة وتحكي شهرنان أسطورة ومغامرة جديدة، سنبدأ حكاية قديمة حديثة، عن فتاة أحبت يوما شخص رأته ملاك، ملكته قلبها ومفاتيح خزائن الخيال بأحلامها، كما وهبته العقل بسخاء مهيب.

استيقظت لتجد القصر المهول والحصن المنيع سقطا تحت وطأة زحف أشباح السنين، أفاقت لتجد أنها تعيش بحب كالهواء، فراغ كبير يستعمر قلبها، تركت شهرنان لها الساحة الآن ومجال الحديث، لتدندن بألحان تُعبر عما يجول بخاطرها الحزين، عما نوت أن تفعله بمستقبل أيامها في غياب الحبيب، لتجيبنا عن أسئلة جالت وتجول بعقولنا عن حالها.

قالت "نعم.. أحببت بكل جوارحي، عشقت حتى الثمالة، ثم انتهى ما كان وما حلمت به، ما توهمت وجودة لأعود وحيدة، فعُدت أُشهِرَ أسلحتي لأدافع عن حياتي من جديد، أكَوِن وأشكل حائط صد أمام قلبي، أضعف وأمزق خيوط حبي المنسوجة داخل قلبي بيدي.

عدت أمارس مرونة تميز روحي لأعالج جراحي، أبدء حياة جديدة خالية من شبح حبيب ضاع في زحام أيام مرت علينا، أطرد مشاعر كانت تغمرني ضعفت أمام صعاب الحياة، أبدء بنقاء لأعيش وأولد حرة من مشاعر خدعت فيا السنين، أصفي نفسي من حقد على قلب ظلم قلبي الكبير.

عدت إلى حياتي لأكمل رسم حدود جدية تزينها، أختار أفكار متنوعة ومختلفة تغلف أسلوب حياتي الجديدة، أحدد أهداف أحققها طموحات وأمال أقويها داخل عمري وكل ما هو أتي، أتشبع بصفات تقويني لمواجهة حياة صعبة قاسية.

أخفي بتجاويف القلب أمنية بقرب حبيب يحميني، حبيب يشاركني همي وضعفي وفتور لياليَ، فلقد طردت خارج حياتي أساطير بأوهام خانتني، وساوس قهر وعذاب خنقتني، تغافلت عن ظلم وعتاب وملام.

عُدت لأظهر للعلن حب وجمال يحتويني، طموح وأمل في غد أفضل يملأ سنيني، إشراق وتفاؤل ونقاء مشاعر تنير ضي عيوني، أخبئ بقلبي جوهرة حبي الكبير، أنتظر لمن أهبه هيامي وعشقي بدون حساب، أحلمُ بمن يملك لزمام أموري، يطمئن قلبي أن الأمور ستكون دوما بخير، شخص مهتم جواري ومعه لن يصيبني أي شر أو حتى سوء، إنسان هو لي وأنا له حائط صد وصمام أمان، حب وأمنية تحققت بقدرة رب رحيم متعال".

الآن نعود بعد أن سمعنا كلمات محبة عادت لتقاوم ظلم حب، نواصل لنقص قصص وروايات تملأ الدنيا وحكايات مستمرة، نعيش دوما في انتظار قصة جديدة في خبايا طيات كتب شهر نان الأميرة.

..*

اعتاد نايف أن يسترجع في خياله لحظة اللقاء الأول، ورعشة الحب التي تشبه دبيب النمل بأوصاله، كان يسلمها رسالة من عمها، سألها شو اسمك أجابت بتلعثم فاطمة وأحمر وجهها كما بندورة حمراء، سأل عن دراستها أخبرته أنها في الصف الثامن من التعليم الأساسي، رآها جميلة أكثر مما رآها من قبل وهتف:

ست من السنوات تفصل بيننا، يا الهي... من يومها ظل يفكر فيها وفي سبل الفوز بها، ويبحث عن خطابات عمها ليذهب إليها لإيصالها ورؤيتها.

قرر إعلان حبه لحظة استوقفته لتسأله عن البريد، وقتها هلل ورقص قلبه طربا وكأن اليوم عيد، أخبرها بحبه بأن منحها وردة حمراء وخطاب يفوح منه عطر اشتراه خصيصاً لهذا الأمر..

جرت من أمامه فظن أن الحياة قد ابتسمت له وأنها وقعت فريسة حبال غرامة، صيد ثمين داخل شباك غرامة المثير..

دخلت فاطمة غرفتها وأحكمت إغلاقها، خبئت الوردة فهي أول وردة تتلقاها من رجل، صحيح لا يعجبها شكله لكن يعجبها نظراته المتتبعة لها، محاولته التقرب منها، إصراره على الاقتراب منها، فتحت الخطاب على مهل وكأنما هو قنبلة شديدة التفجير، كانت تشعر بالرعب أن يُفتح باب غرفتها فجأة رغم أحكام غلقه.. لتجده قد كتب لها:

حبيبتي الغالية فاطمة..

لكِ مني ألف تحية وسلام

لا أعرف كيف أخبرك بحبي، منذ رايتك أحلم بكِ بنهاري قبل ليلي، أنت يا امرأة ناعمة الخدين سرقتني، في عالمك أسكنتني، فهيا دوري كالنحلة ولنور حبك اسقيني، طيري وأنيري سكونِ وحلقي فوق غيومي.

يا حورية وساحره لإوز ببلادك شكلي أحلامي وآمالي، هلمي كمشعوذة ببلور وعصا مسحور أخفيني من عالمي، يا غجرية بشعر أهوج كأمواج الصحراء أحبيني، ومن غضب أيامي وحنين آلامي اسحبيني وانجديني، هيفاء البلور من عسل عبيرك أروي أنيني، فاطمة عيونك سحب ونجوم تجذبني وبسفنك أغرقتني.

أنتِ كائن معجون من نار العشق يلون جنون هواي، كماء منساب بين أشلائي وجنوني ضميني وانسيني، حبك كرمال متحركة هيا من شر جنوني اشفيني، آه من أنفاسك عاطرة ساحرة كالفلك تغمرني يا عيوني، فلتأتي يا سمائي وبالأرض جذرا متأصلا ازرعيني، فاطمة أنتِ حياتي وغرامي فتقبلي حبي وأحبيني.

المغرم بكِ وعاشقك

نايف المصطفى

..*

آسرتها كلماته، لم تتخيل أن هذا المسخ يمكنه كتابة خطاب غرامي كهذا، صُعقت عندما أدركت أنها باتت تفكر فيه، لا.. لا يمكنها هذا، ماذا إذا عرف والدها سيقتلها بالتأكيد، ستسخر منها صديقاتها، ستكون مثار المزح بين زملائها ومدرسيها، هل تحب هي الفاتنة البهية هذا البشع؟، لن تسمح لنفسها بهذا مهما أرسل إليها، لكن..

لا مانع من مشاغبته ومشاكسته قليلاً، بحد يترك لها مجال للفرار، حينما تريد، لذا تركت له الباب مواربأً، فاعتاد أن يذهب ليقف أمام مدرستها صباحاً وعند انتهاء اليوم الدراسي، كلما رأته تصنعت الوَجِل والخجل فتنظر للأرض، فيقتنع أكثر أنها تُحِبهُ، وذائبة في بحر عشقه.

مر عامان وهو يراقبها ويسعى خلفها من بعيد، كانت رسائله إليها لا تنقطع بمعدل رسالتين على الأقل شهريا حينما تسنح له فرصة الاقتراب مدعياً وصول خطاب إلي أبيها من عمها المهاجر لأمريكا.

منحا يوماً خطاب مفعم بالحب ظلت ساهرة طيلة الليل تُفكر فيه، وكيف لو كان من شخص أخر أكثر وسامة وإثارة، لو كان فقط يُشبه زميلها باسل فهو فتى شديد الصلابة والوسامة، دوما مهندم مبتسم الوجهة وبشوش، يعيبه فقط عدم مراعاته وإعجابه بها.

دوما يتجاهلها كلما حاولت الاقتراب منه، تعشق لكنته الجنوبية ويثيرها سيره بشموخ وسط أصدقائه في المدرسة كما لو كان زعيم الفريق والمجموعة، تُحب مشاهدته يلعب الكرة معهم، تذهب مع صديقاتها يومي الأحد والأربعاء للباحة الخلفية للمدرسة لمشاهدة مباراتهم الدورية.

أمسكت بالخطاب وبدأت تقرأه من جديد بصوت باسل لا نايف..

..*

حبيبتي الغالية فاطمة..

لكِ مني تحية وسلام ودعوة خير ووئام

آه منك يا ساحرة ساهية العينان، يتلألآ بجمال منير وضاء جبينك هذا، شعرك يتموج كالبحر ليطير بكل الأنحاء، يا سارحة في ملكوت الخالق بحنين، عينان خلابة للروح وللقلب سارقان، سحرك يسحبني لغياهب خدان مثيران، وجفون تتناغم مع شمس الكون لقلبي تُثيرين.

آه منك كلك.. بعضك.. قاتلتي بسيفين، سيف شقاوة.. وسيف هدوء مستكين، ها أنت أملي وبكل عذوبة تجلسين متربعة على عرش قلبي، وكأن الكون تواضع لجلالك ملك يمين، يا فتاة سارقة للعقل كحد السكين، أفيقي للعالم ومعي هل تتجاوبين؟! امنحيني أمان حبك، ساهية العينين عاشق لقربك فهل تُخبريني أنكِ تُحبيني وترغبيني؟!.

عاشقك الأزلي/ نايف المصطفى

..*

كان أمر حبة قد شاع بين صديقاتها، كان مجال سخريتها هي وصديقاتها، تأخذ منه الرسائل ليقمن حفلة شواء خاصة على شرف قلبه المحترق بعشقها، هي حفل نميمة عن نايف المتيم وحبه الأزعر لفاطمة، تلك البتول الناعمة.

في إحدى المرات ظللن أسبوع كامل يضحكن على رسالة خاطب فيها فاطمة واصفاً مشاكساتها له، متألما من جفائها في حبه، مطالبا بأن تمنحه فرصة الاقتراب أكثر، ليحدثها عما يسكن قلبه من غرام ، يا لهن من قطط مشاكسة عشقن تعذيبه، بإثارة شجونه وحبه لمجرد تمضية الوقت والتسلية..

..*

حبيبتي الغالية فاطمة..

لكِ مني تحية وسلام وعتاب يا منية القلب

لمَ تشاكسي قطة فضولي بكبرياء؟!، تلاعبيها همسا بدهاء أنثاكِ، تدغدغين مشاعري بحياء خبير لأتنمر وأتمنى المزيد، قرون استشعاري استنفرت لغيرتي عليكِ من كل الرجال.

يا حبيبة القلب يا أسرتي أنطقي واعترفي، أنتِ مع قلب طيب محترف الصبر والهدوء، لـمَ الغموض والسكون وابتسام الجبين هو ردك لكل ما أقول؟!، أخرجي ما لديكِ بوحي بسرك الدفين، أمعجبة أنتِ أم عاشقة مثلي بجنون؟!، هل تجذبيني إليكِ وأجذبك كاشتعال الضوء؟! أم أني أتخيل وأعيش في الظنون؟!.

حياتك حكمة وبالشقاوة مسجونه، عقلك خليط متجانس من هدوء وجنون أشعر به من نظراتك الحنونة، حبيبتي اعترفي وأريحي القلب الخجول من الظنون، أعاشقة أنتِ أم عاشق أنا وتلعب بي السنون؟، حياتي وغرامي منتظر منكِ خطاب مختوم بقبلاتك.

المغرم بكِ/ نايف المصطفى

..*

حبيبتي الغالية..

لكِ مني تحية وسلام..

يا كرة البلور أراكِ تناديني، يا ساحر غنائي أدراني، سأخبرك أسرار عيوني، وببعض اللمسات سأمنحك سكوني، قبل بلوري وأشعل في فضولي وسأبحث في الكون كمحارب مغولي عما يبهجك، أقترب وبحبي لحسادك وعزالك سأبتر بسيف موالي.

فاطمة أُحبك بكل ما بالدنيا، فأنتِ ليَّ الدنيا بما تحوي وما تخفي، أُحبك بكل ما أعرف، فأنتِ المعلم والتلميذ بصفوفي، أُحبك بكل ما فيكِ، فأنتِ ضياء النفس والتسبيح والتنهيد.

أُحبك بكل ما فيَّ، فأنت مالك لك القلب والتجسيد، أُحبك وكفى بحبك دنيتي، يا من به ومعه يكون عيدي، ضميني بأهدابك لأتدفأ بخطوط كحل الأنضولي، اكتبي وغردي يا عمري، انثري أحرفك وسط رماد المستحيل، ربما يفيق الغافلين، وتوقد بدمائهم عنف الاشتعال الغرام ونيران الحياة.

حبيبك الدائم/ نايف المصطفى

عندما لم يجد أمل في تلقي خطاب منها تعترف بحبه، تلمس لها العذر فهي فتاة خجول تربت على أصول شرقية يمنعها حيائها من تخطيها، لذا.. قرر أخيرا اتخاذ خطوة شجاعة..

قرر الذهاب لطلب يدها من والدها، ولمَ لا فهو متأكد من حبها له كما يعشقها هو... لكن عليه أولاً أن يعلمها بالأمر كي لا تُفاجأ عندما يخبرها والدها فتتلعثم، أو تُصدر تصرف يسيء والدها فهمه، لن يجازف فهي شديدة الخجل وقد ترفض نظراً لارتباكها.. يا للأسف كان شديد الثقة في حبها له، أرسل أخر خطاب حب ليُعلمها قراره، فهو لم يعد يحتمل بعده عنها.. والاستمرار في حبها برسائل فقط، يريد الاقتراب أكثر من نهر حبها المسكر.

..*

غاليتي الفاتنة فاطمة..

أرسل لكِ قبلة على جبينك الوضاء

أريد أعلامك صغيرتي بقراري التقدم رسمياً إلى والدك لطلب يديك، لم أعد أستطيع تحمل بعدك عني، تلك القيود التي تفصل بيننا تخنقني، حبيبتي أعشقك وأتمنى أن يجمعنا بيت واحد لتكوني شريكة عمري..

بعينيكِ.. أغوص بلا سفينة، بلا مرساه أو مدينه، أهيم أتوه وأسبح بسكينه، أغني لأطوق روحك المستكينة، بعالمكِ.. تضمني قناديل عشقكِ، تتوه خيالاتي بحياتك، تتوهج روحي بكلماتك، عاشق لكينونة أفكارك، وأعيش بآهاتك، كالريحان والنرجس تخيلتكِ، حبيبتي.. في بحر عينيك غنائي، يا أمان وهدوء لدعائي، يا عشق وغرام بحياتي، يحميك الله هي كل ابتهالاتي. حبي.. أنتِ يا صفو قلب صبوح، معك الهدوء بالكثير يبوح، شقاوتي المختبئة من بؤس الأيام في البعد تنوح، كأميرة أحلام أتيتي إليَّ بالروح، ليحيطني خيالك بجموح، بقربك تشفى كل الجروح، حبيبتي.. تعبت من الانتظار أرواحنا، فمتى تلتقي نبضاتنا؟!، تطيب آهاتنا؟!، وتجتمع قلوبنا؟!..

شهر نان هلت تخلخل بأساورها العربية، وتثير الضجة المحببة للأذان بخلاخيل تُزَينُ قدميها، يبدأ عزف ألحان شرقية وتحكي عن أنثى القمر، تلك التي لا تكفي حكاياتها اليوم وغدا أو حتى بعد غد والغد الذي يليه، فهي لها حكايات وروايات تملئ كتب للأساطير، هي أنثى قاتلة عنيده شرسة من وجه نظر قصائد أشعار حبيبها.

من خلف الأستار يهل صاحب حكايتها عاشقها بِبُخار الروايات مغلف، وبعبق التاريخ مزين، يحكي عنها ويقول : هي ملهمتي في عالم الكلمات الذي نادانا ليحوينا، وببراءة سمائه أشار ليسرقنا، وببحاره أمر بإغراق مساوئنا، وببهائه جمعنا بأميرة حس وكلمات لتسحرنا، هي ملهمه كتاباتي.. بزهو أقرء كلماتها، وبفخر استشعر ذاتي تناجي ذاتها، وبكل جمال ألمس أحرفها تناوشني، آه منها هي صديقتي الملهمة، صديقة بأكاليل الزهر تتوج أيامي، يا ملهمتي أعشق وجدانك، فهيا ملهمتي خبئي عيوني خبئيني، أخفيني حتى عن الزمان غاليتي.

حبيبتي الهائمة بين السحب، الطائرة بين النجمات، تحت سفح حمى الهرم لنا موعد ولقاء، برعاية أبو الهول وتعويذات القدم، لأضيئ لك القمر شموع، وأسقيك الورود مُسكر، لأطعمك ربيع عمري شهد وعسل، وبيدي اعزف اهدأ الألحان لك أنتِ يا أنثى القمر.

حبيبتي تحكمي في مسار كلماتي لفرض سطوتك على أحرفي، فهي تدخلني لعوالم خيال اللا منطق بهيامي معك، والقوافي حبس يأسر لأحاسيسي ويخنق داخلي العبارات، فأنا عاشق التطرف وبعثره الأحرف والعبارات، فدعينا من تلك الأحاجي ولتمضى معي في درب اللاوعي بقصائد مغناة من القلب، قصائد مرسومة بشفاه أقلام الهيام، مزينه بورود السحب والآهات، لا تخبريني أنثاي أن أكف عن الغناء لأنثى القمر فهي أنتِ غاليتي العزيزة.

شهر نان أساليها، لا أنا من سيفعل هيا أخبريني أنثاي كيف أحرر سفن عشقي الكامنة بين الواقع والخيال؟، كيف وشباك مرساها بيد قبطان السحاب أنتِ؟، يا سلطانة خيال آتيتي فجأة لإنارة ظلمات سمائي وواقعي، هيا أطلقي " راء" رداء الخيال ليغلفني، و"جيم" جمال وصفاء إبداعك ليثيرني، و"واو" وفاء الكلمات لتُشاغب أحرفي، و"لام" لحظ القصائد لأولد بها، و"هاء" هيام المحب ليبدع إلهامي، هيا عبري وتكلمي بقصائدك وأعلني في الوجود حياة طفل شاغبك فأطلقت عنان روايات الخيال المنظومة بالأشعار لتكَوِني رجولته.

أنثاي.. يا أنثى القمر إني عاشق سكن وديانك ويتمنى نيل هواكِ ورضاكِ، شهر نان لحني أغانيها ساعديها، واخبريها علها يوم تتخذ القرار وتظل معي أنثاي أنا لأكون أنا سيد أنثى القمر وحبيبها.

..*

ارتعبت فاطمة من الأمر، لكن طمأنتها صديقتها ونصحتها بادعاء المفاجأة كي لا تُثير شكوك والدها، التعلل إذا شعرت انه سيوافق برغبتها إكمال دراستك وعدم الزواج الآن.

في حين اشترى نايف قميص وبنطال جديدان وقارورة عطر برائحة التفاح، ذهب مبكراً لمنزلة ولم يخبر والدته بما ينويه، بعد أن صلى العصر على غير عادته تبركاً، بدء الاستعداد لحدثه الأكبر وهو خطبة فاطمة، استحم كما لو كان يوم عيد.

بعد أن حلق شعره وذقنه كما عريس ذاهب للقاء عروسة، أنا فعلا عريس هكذا قال لنفسه فرحاً، ارتدى ملابسه وذهب إلى المسجد القريب ليُخبر والد فاطمة أنه يريده في أمر هام، سيقول له لا يجوز أن نتحدث فيه هنا أمام الجيران، دعنا نذهب إلى منزلك عمي، هي فرصة يريد انتهازها للقاء فاطمة، تم الأمر كما دبر له.

وافق الأب واصطحبه إلى منزله لمعرفة الأمر الهام، ولو أنه ظن أن نايف يريد أن يرسل والد فاطمة لأخيه بالخارج ليجد له فرصة عمل، لم يرد صدمته مقدماً باستحالة إيجاد عمل لفاشل مثله، قرر أنه سيماطله حتى ينسى الأمر، كانت ابتسامة الانتصار تملئ وجه نايف، فسيرتبط بحب عمره أخيراً، حتى أنه طيلة الطريق يتخيل فاطمة تحدثه: حبيبي أريدك نزار في قوته ورومانسيته بالتأثير، كالساهر عاشق بعنفوانه وبحبك سكير، لا شاعر مغوار ولا ساهر لنهار مرير، أبياتي لأجلك وأشعاري تنساب كالحرير.

أريد حبك ينطق بعنف بجبروت صمته، سحر غرامك بنظره عين أريد لمس قوته، بشفة حانية بأفعال نارية قلبي أحييته، بين ذراعيك شكلتني ولحبك صرت قتيله، بكفيك أخترق جداول الحياة في وأحيني، بلهيب أنفاسك أروي عطش عمري وسنيني، بدفء روحك الحالمة لنقضي لياليا، اعشقني بقوة جبروتك في الحب الحالم ومن الحياة اسرقني.

لنحطم العالم البالي وننتقل لعوالم الخيال السارح، أحبك عاشقي بكل حنان وقوة كفيضان غامر جامح، معك أنسي ما مر وما سيمر من عمري بحب واضح، أريدك حياة ودنيا لنصير معا بالروح.

دخل نايف سارحاً في خياله إلى المنزل، ليجلس كديك منفوش واثقاً من حبه وحب فاطمة، طلب الحاج عدنان من أهل بيته شاي للضيف، بدء نايف يتوتر لذا قرر أن يُشجع نفسه وألا ينتظر الشاي فهو يريد شربات العرس فقال فجأة.. عمي أطلب لنا شربات فأنا لا أريد شاي، بل أريد الزواج من فاطمة أبنتك..

كان اللقاء عجيباً يحكي ويتحاكى به كل الجيران، صُدِمَ والدها من طلب نايف، وما كان منه إلا أن طرده أشر طرده.. صرخ والد فاطمة يا لك من عريس وزوج ثقيل الظل.. أأزوج زهرتي وقرنفلتي اليانعة لك أنت يا بشع الخلقة، يا ضعيف الحال!!.

يا عمي أحبها، لينظر له الرجل شذرا مهددا إياه بالكثير إذا لم يبتعد،طرده بعنف من بيته ليخرج وهو ينزف ألماً وكراهية لفقره، ولوظيفته، ولوالد فاطمة الذي أهانه وطرده، قائلا ماذا تفعل أربعمائة ليرة – راتبه في مصلحة البريد – لك ولإخوتك الخمس ولابنتي؟!، خرج ليجد الجيران متحلقون يستمعون لأهانته، نظر إليهم نايف بضعف قائلا لنفسه: أفهم هذه النظرة الحمقاء، تلك الابتسامة الخرقاء، لكني سأتعمد الإستغباء، كي لا ألوث روحي بآثامكم البغيضة.

ماذا تقول نايف تعلم أن عدنان مُحق فهو ينتظر ممن يتزوج فاطمة الكثير، ولا مجال لموافقته عليك أيها البائس..

فكر بالسفر إلى الخليج وشاكسته آمال الهجرة، أحس بأنه ضعيف قشة في مواجه ريح عاتي، أو إعصار يكسر كل ما فيه.. أحلامه طالت ليبقي في النهاية عاجزاً أمام فقره.. لا ينجده إلا أحلام اليقظة وأوهامه الخاصة بنجاته من هذا الفقر المُدقع..

تساءل كثيراً عن حال فاطمة بعد هذه الحادثة، هل علم والدها بأنها تُحبه؟!، هل تسهر تشتكي للقمر مثله؟!، هل تبكي بكاء قلب قبل بكاء العين كما يفعل كل ليله؟!، لمَ لم تحاول السؤال عنه وعن أحواله هل فتر حبها له؟!، أسئلة كثيرة تراوده، يخاف أن يذهب لرويتها فقد كون فكرة أن والدها رجل شرير، لكنه ممتلئ حتى النخاع بالشك في نسيانها له ويظن أنها خانت عهد حبه..

قرر أخيراً إرسال خطاب إليها..

يبثها عبره غرامة وعذابه بعد رفض والدها، تحين فرصة واقترب منها ومنحها خطابة كما السارق، فقد خاف أن يراه شخص ويخبر والدها فيؤذيه كما هدده إذا حاول الاقتراب منها.

كان قد كتب لها:

غاليتي الفاتنة فاطمة..

حبيبتي كم أتعذب لفراقك

يا حب وهبته الروح ونفسي الشجية، فخان العهود وباع الروح الآبية، لا تعتقدي قربي محبة لروحك العصية، ولا تظني بعادي مبغضة لديارك المنسية، يا أنتِ ..العقل لعينيك تأرجح سعيدا بهفواته، والقلب أرسل قبلاته محفورة مع دقاته.

روحك بفيض مشاعر دكت لي الحصون، فاستسلمت نفسي متغنية بأسمى المعانِ، لأجلك دون مشقة نُكِست الحبيبة راياتي، فأنتِ الحبيب المحتل بنعومة لأسوار مدينتي، لكن لماذا..

دهست خيولك بخيلاء رياحين وزهور حبي؟، أحرب الإفناء مكافأة حبك لأحياء قلبي؟، أيقظتني على طعنات حسامك بروحي، شردتني وحيداً لأكابد غدرك وجروحي، حنانِيك قاسية الطباع المغتالة لحبنا الوليد، رحماكِ أنتِ، كيف وافقتِ على اختلاف دروبنا؟! يا حب وهبته الروح.. حنانيكِ.

عاشقك المهوس/ نايف

..*

لكنه عدل الخطاب وكتب أخر، بعد أن رآها واقفة مع باسل زميلها وجاره تضحك ويبدو عليهما الانسجام الشديد، لم يوقعه كعادته، عندما أشار إليها وناداها لم تعره اهتمام، اقترب منها فأشارت بكل بساطة أن يتركها لشأنها، وعادت لتضحك من جديد مع باسل، ابتعد وجلس بالقرب من أسوار المدرسة يقرأ خطابة قبل أن يمزقه..

..*

غاليتي الفاتنة فاطمة..

حبيبتي كم أتعذب لفراقك

حبيبتي كان أمل الاقتران بكِ مصدر أماني في الحياة، فأنا الجنون الهادئ بغيابك، المجون المضفر بعباءتك، الحب المبتور بجفائك، العشق المنتحر على عتباتك، دونك الوحدة والشقاء، لك الحنين والانتهاء.

أنا النجوم الوضاءة في سمائك، صوت وألحان غنائك، أنا.. أنتِ يا مفارقة، هل بسهولة هكذا استبدلتِ حبي؟!، آه يا هوى كلنا فيك عشاق، ولحبِ ضائع نتغنى ونشتاق، نتمنى معك دوما للزمن استباق، علنا نجد الحبيب باق! هيا يا عشاق الهوى..

فلتشنقوا المشاعر، ولتحرقوا طبول الغرام، أنسفوا عيون بيوت الهوى.. مزقوا الوسائد، وحبيب قلبي الكتوم.. اقتلوه،!

حاكموه، فلقد اختار نفيي لغياهب المجهول... طلب الابتعاد ببساطة ويصر عليه،! طلب الابتعاد وابتعد!، آه يا هوى.. واه ثم آه منك حبيبي.

عاشقك المهوس/ نايف

..*

عاد إلى منزلة يشعر بالخذلان من شتى الأنحاء، يتساءل أعيبي أنا أم عيب الجبناء؟ لم أطلب إلا أن يكونوا معي صرحاء، فلم التجني والظلم بتبسم البلهاء؟ اه كم يتعب القلب من حركات الحقراء.

عاد نايف بعد فترة اكتئاب استمرت يوم ونصف ليمارس عمله فمثله غير متاح له رفاهية الاكتئاب، ذهب علّه ينسى ما أصابه، كان قد حفظ الدروب والمدقات الجبلية الوعرة بحكم عمله كموزع للبريد، تلك التي تختصر المسافات بين القرى الجبلية في الجنوب.

فقد اعتاد اختراقها بدراجته متجنباً الأسلاك الحدودية، والألغام المرشوقة المكتوبة بالعربية والعبرية، خلال رحلته اليومية لتوزيع البريد..

أعتاد التطلع إلى الأزهار والشجيرات الصغيرة التي يمر بها، الشجر الباسق وسط سفوح الجبال، أحياناً يتخيل الأسلاك الشائكة تحدثه لتسأله عن أحواله مشفقة عليه وعلى حاله البائس في عالم البشر..

نايف أيها المنسي بين الدروب، على قارعة الطريق تموت وحيداً، تهرب من ظلم عليك مكتوب.. فتحتضنك عناقيد القسوة بخفوت، تلتمس من أشباح غباء الهروب.. فتصيدك بقيود قنابل الصوت. تعيش وحيد في هذه الحياة مغلوب، فيهديك البشر.. القهر حبات توت، تتلمس رفقة الأصحاب.. فيشملك الغروب، تحتضن الحنان وتطلبه.. فتضمك شباك العنكبوت، تنادي المجهول ليحن عليك.. فيجيب السكون وتذوب، رغم ذلك.. تعيش متفائلا بعصر الصمت، تعلن أنك عن الغرام والعشق أبدا لن تتوب، ففي قصور الخيال الحب أبدا لن يموت، وبما ستكون به موعود.

كان قد اعتاد تجنب الطرق التي تقربه من منزل فاطمة أو مدرستها، فذكراها تثير في نفسه الشجون، يشعر بأن سكين حبها يمزقه أرباً كل يوم، يتخيلها أمامه في أي مكان يذهب إليه، كثيراً ما خاطبها ليشكوها إليها ويشكو حاله بعدها إليها..

كان يقول لها، تقابلنا على دهشة وأفراح.. وصارت ذكرى غرامنا جراح، تناجينا على عشق بلا أوجاع.. وصار مصيرنا متشابك مع الوداع، تهامسنا على صبر يعقبه لقاء.. وصار ما يجمعنا خيوط من ابتلاء، تواعدنا على حب وأمان.. وصار موعدنا فراق وعتاب.

تصافينا على النسيان.. وصار لقاءنا هجر وحرمان، انسجمنا على بحيرات أحلام.. فصارت هباء... وذر أوهام، تقابلنا.. تناجينا.. تهامسنا.. تواعدنا.. تصافينا.. وانسجمنا.. وصارت أحلام مهشمة ما يجمعنا، سرقتنا الحياة لتؤلمنا.. فقد افترقنا.

ظل الحال كما هو حتى أواخر 1970... حيث تبدلت حينها مشاهداته اليومية، وأدرك وجود مستجدات جديدة، حيث صادف في أحد مأمورياته الصباحية مجموعة من الفلسطينيين يستطلعون تحركات الإسرائيليين على الحدود بنظارات الميدان، ويرسمون خرائط لنقاط المراقبة، فزعوا لرؤيته فاستوقفوه.. يا أنت قف!!!

..*

شهر نان من هذه الصامتة، خبرينا عنها؟!، إنها صبيه مليحة ناديها أو عنها خبرينا..

شهر نان مجلجلة تقول.. اسمعوني وجه باسم باستحياء وهدوء جاذب للناظر، لكن من منا أدرك المختبئ خلف قناع هدوء بادي، خلف برودة مشاعر وتحكم صارخ بقسمات وكلمات تُنطق، هناك هدوء وصمت قاتل يعم الأرجاء، سكون غلف كل الأنحاء، برودة كلمات وأحرف ضائعة، خيال فاقد للوعي بصحبه خفوت يُعمي التفكير، شلل أصاب خلاي مخية توقف إبداع الكتابات.

رومانسية مفقودة وأحاديث تائهة، حب بالزيف والخداع أتصف، حب خَلَفَ موت مريع لآمال وأحلام كانت سارحة في الكون بنقاء وصفاء، طفل وليد يَشِب ويَكِبَرُ وفي طور شبابه أُغتيل بتعَنُت قلب قاس، خيانة ثقة ليُطرَح أرضا دون ذنب جناه، تراب أُهيلا عليه ليؤد ويدفن ناظر لقاتله بابتسامة حب وهيام رغم ما كان، مُستوعب لكافة أحداث قتله لكن دون إرادة لرد الأذى أو حتى إطلاق صرخات الاعتراض.

وجه تغطي محياه ابتسامه بِشر وترحاب بقاتل يصعب على القلب إعلان كرهه، الإقرار بسلبه ما منحه من سلطات بحجة غرام وهيام زائف، تخنقه أسئلة طائشة هنا وهناك تبحث عن إجابات غير موجودة إلا بجعبة قاتلة، جروح نازفة لا تلتئم لتئن الروح منادية رب كريم يحفظها من ظلم وضياع لا تدري كنهه فاعله.

نعم ذاك الوجه الباسم بريء القسمات، الرزين الأفعال بحكم الغير،المُعلن عن هدوء يجمل ظاهر القسمات يفشي عن مراجل أسئلة تغلي بحنايا تتعذب لفراق وهجر وخيانة، باسم هو رغم جراح تقصمه لكن تفضحه أحياناً عيون ممتلئة بحزن دفين، قد تشي في بعض الأوقات ابتسامة مقتضبة مبتورة الأركان تُخفي أكثر مما تعلن، تبدو فرحه وبسعادة وبشر تنادي، لكن حقيقتها الأطراف باردة كبرودة تغرق قلب بنيران روح غاضبة هائمة في ضياع وفشل محاولة نسيان ما كان، وسط جهل الخوف مما سيكون.

نعم هذه المُقبلة على الحياة باستماتة، الهادئة، وهذا ما يغمرها ويملئ روحها ويريد إغراقها، قتيلة حية منها كثيرات بهذه الدنيا لا نشعر بهن، يتنقلون بين بشر أحياء كظلال سوداء تظهر بمرايا الأيام بيضاء، تمر كأشباح هائمة متجولة في فراغ يحوي دنيانا الفانية، فراغ يحوي أخلاق وأفعال مختبئة تظهر على استحياء، فراغ يحوينا جميعا موتى وأحياء، دوامة تغرقنا بحياة دائرة، لنحب ونُخِدَع أو نَخِدَع، نطمع ونرضى لتضيع أحلام وتبنى أخرى.

نعم هذه الباسمة بريئة الوجه والقسمات، وهذا ما يجول بخاطرها، ما يعتمر بداخلها صباح ومساء، ما يؤرق ليلها ويُسَلي وحدتها، يقتُلها أحيانا لتضيع بوحدة خانقة، لكن دوما لا ينتشلها منها إلا لجوء لرب قادر ورحيم مالك لأمورنا.

..*

فزع الفدائيين لرؤيته فاستوقفوه، وانهالت الأسئلة عليه يستفسرون عنه وعن سكان المنطقة، وأماكن الاختباء لمراقبة الكيان الإسرائيلي، وكيف يمكنهم اجتياز الحدود ليلاً وغيرها الكثير والكثير من الأسئلة..

لكن نايف لم يعر هذه الأمور انتباهاً من قبل ليستطيع ثبر غور أسئلتهم، هو يكره السياسة والخوض فيها، بل يجهل سبب الخلاف بين العرب وإسرائيل.. لكنه يتذكر مقولة والده وهو طفل:"هذه الأسلاك قاتلة، فلا تغامر وتقربها"

شب وقد رسخت بداخله مخاوف الحدود والأسلاك والرصاص، بعد ذلك اعتاده الفدائيين الذين يجوبوا الجبال قرب الحدود، ليراقبوا ويسجلوا ويحللوا كل ما يرونه، كان يسأل نفسه لمَ يقومون بكل هذا؟! لم يستوعب أبدا القضية، أو كيفية التضحية والموت في سبيلاها.

كل ما يعلمه أن هناك طرق أخرى لم يكتشفوها بعد.. سلكها هو بعيدا عنهم حتى لا ينغصوا يومه بأسئلة لا تهمه أو تفيده بشيء.

خرج بأحد أيام ربيع عام 1971ببريده مستمتعاً بالزهور البرية التي تنبت في الأحراش بريأً، فوجئ بشخص أكبر عمراً من الفدائيين الذين اعتاد رؤيتهم، فهو يقارب الخمسين، يجلس على العشب متعب.

يبدو أنه جلس محاولاً التقاط أنفاسه، وبجواره حقيبة سفر كبيرة، كان منظرة غريب وسط الأحراش المقفرة هذه، لم يهتم وقرر استكمال طريقة مدعياً أنه لم يراه، ليتوقف فجأة على صوته..

أنت.. يا ساعي البريد..

نظر إليه نايف باستغراب، وأجابه..ماذا تريد؟؟ ثم ماذا تفعل في هذه المنطقة المقطوعة عن البشر؟!!.الغريب: تعال هنا، متعب ولا أستطيع الوقوف، فهلا لطفاً منك اقتربت أنت وجلست معي قليلاً.

ذهب وجلس جواره متضايقاً وبدءاً يتجاذبا أطراف الحديث...

..*

شهر نان منادية فتاة باسمه، قائلة..

هيا اقتربي.. قُصي علينا سر ابتساماتك الزاهية، يا أنتِ أشركينا قصة غرامك والتي تبدو متفائلة..

تنادي الفتاة وتقول..

حبيبي في عالم آخر يجمعنا تعال نلتقي، بميعاد ثابت كل مساء نجتمع لننسى الدنيا، ننتقل بأحلامنا لعالمنا الساحر، الكائن خلف السحب وخلف حدود سماء الدنيا، المزين بنجوم وكواكب لامعه، ومعطر بشهد الملكات وشرقيات العطر.

لنشرب فيه قطرات ندى الحب ونطعم لقيمات غرام حور العين، نسعد بحياة وحلو لقاء وتخطفنا أحاديث متبادلة، وتغطينا شهوة همسات وبسمات، لنثير جنون الصمت بعذب مناجاتنا، نداعب هدوء الكون الغافل بزخرفة حروف هوانا العامر بزهور يانعة.

حبيبي.. تعال انقلني بعباراتك لدنيانا الخالية من هموم الكون الغافل، بكلماتك أدخلني قصيدة عشق صوفيه واتركني أتجول بحناياها، لنرقص ونغنى ونتهامس همس عيون محبة عاشقة، لتضم يداي بأبياتك وتسرقني لدنيا الأفراح.

موجات نبرات صوتك أسرتني في أمان دنيا أشعارك الحانية، احضني بهدوء لمسات نغمات أبياتك، وهدهد مسامعي بهمساتك الناعمة.

حبيبي يا طهر ملئ حياتي نقاء وصفاء، يا بياض الثلج بحياتي وسموي عن عالمنا الفاني، لنعلو فوق هموم وأزمات تقتل براءتنا، ولنبتعد عمن نظراتهم فارغة وساهون عن جمال خلق الله، سأجمع نجوم الليل لأصنع قنديل بلون النرجس يدفئنا، ومن أمواج البحر غطاء قرنفلي ساحر يخفينا، ومن اهلك وخلانك سأكون سارقة لأجفانك.

اقترب وكن لي يم يغرقني بين ثناياه في ملذات صفاء الكون، لنغوص في بحار نعم الله وننهل من حبه لخلقه ونوزع الفرحة بسعادة، لنطلق دعوة حياة وسعادة في دنيا بشر رغبتهم عيش حياة حقه، حبيبي هيا لنأخذ فرصتنا في الحب بنقاء في دنيا تسرقنا من أنفسنا قبل أحبتنا، هيا حبيبي تعال لنعيش دعوة حياة، فهؤلاء البشر كشفوا غرامنا من ابتسامتي الزاهية.

..*

زياد

أخبره "زياد" – كما أدعى – بأنه تاجر جوال فلسطيني يبيع البضائع المهربة الرخيصة وفتح حقيبته وأخرج منها ساعات وولاعات وأقلام، وحاول إقناعه بالشراء منه فهي جيدة الصنع زهيدة الثمن. لاحظ نايف فعلا جودتها ورخص سعرها. وبما أنه أبن تاجر وحاليا يمر بأزمة طاحنة ويبحث عن مخرج، فقد عرض على زياد مشاركته على أن يأتي في الغد بثمن البضاعة.

بدأ التاجر في الاستفسار عن أحواله المعيشية، فهو لا يريد خسارة بضاعته وعلى نايف أن يعذره فالأمر لم يعد آمن هذه الأيام، أخبره نايف أنه يقدر تصرفاته وشرح له تفاصيل حياته، حتى أنه قص عليه مأساة حبه لفاطمة، ورغبته زيادة دخله كي يخرج من دائرة الفقر المدقع التي يرسخ في رسن قيدها.

سلمه زياد السلع، وتواعدا –بكلمة شرف وعهد رجال– على الالتقاء مجدداً بعد أسبوعين في ذات المكان والوقت، لصعوبة اجتياز زياد الحدود كثيراً، لذا كان اللقاء بعد أسبوعين مناسب لكليهما.

انطلق نايف سعيداً بصفقته، ضامناً أولى أرباحه المؤكدة، هلل فرحا بمكسب جاءه سهلاً مريحاً، وهو جالس واضعاً ساق على ساق خاصة أنه لم يتكبد أي شيء في الحصول عليه.

ذهب إلى سوق صيدا الكبير، باع بضاعته بثمن خيالي عما توقعه. جلس في غرفته ليلاً يحسب مكسبه ويفكر فيما سيكسبه مستقبلاً وكم سيجمع خلال أشهر قليله، كادت سعادته توقف قلبه وهو يتخيل قدرته على الذهاب إلى والد فاطمة لطلب يدها مرة أخرى، بالتأكيد سيوافق هذه المرة بعد أن يصير من ذوي الأموال والتجارة، سيكون ندا لها ورأسه برأس أبيها.

لذا بدء ينتظر اللقاء التالي بكل سعادة وكأنما سيأتيه بثروة كالبحر معه، ذهب إلى المكان المتفق عليه قبل موعده بساعة من فرط إثارته وتشوقه للمكسب السريع، جاء رفيق تجارته يحمل حقيبة أكبر فيها أنواع متعددة مما يسهل بيعه بأسعار أعلى بكثير مما يعطيه زياد بها، شرح صدر نايف بشدة، تحاسبا وانصرف كل لحال سبيله منشرح الصدر بما كسبه..

أثناء العودة قال نايف لنفسه: "سأطلب من زياد أن نلتقي مرة كل أسبوع بدلاً من أسبوعين، لم أطلب منه هذا هذه المرة، لا يهم سأفعلها المرة القادمة".

نفذت بضاعته سريعاً، وكان الطلب عليها متزايد بشدة لجودتها العالية، كاد أن يُجن عندما نفذت بضاعته مبكراً هكذا وما زال هناك وقت كبير قبل موعدة التالي، ما أثار أعصابة أكثر أن ألح عليه تجار صيدا في طلب المزيد، حتى أنهم عرضوا عليه أثمان أكبر لبضاعته.. نقود كثيرة، مكاسب رهيبة سأحققها، أين أنت يا زياد هَلُم سريعاً!!.

بهذا المعدل سأصير ملك زماني، وسأشتري لفاطمة الياقوت مهراً، وأقدم لها الزمرد في العرس، آه من الأحلام الممزوجة بالأوهام، واه مما نتوقعه ونحلم به لحظة اصطدامه بالواقع..

استيقظ على صوت والدته تخبره بأن فاطمة قد خُطِبَت، ثار عليها مكذباً، تركها وانصرف خارجاً من المنزل، لكنه عاد سريعاً ودخل غرفته وأغلقها على نفسه فلم يجد في نفسه الرغبة في الذهاب إلى عمله بعد هذا الخبر المشئوم، كتب خطاب ليرسله لها، لكن مزقه في النهاية، فهو لا يجرؤ على مواجهة أباها إذا علم بأمر الخطاب ووجد أنه لم يعد هناك جدوى لذلك..

..*

فاطمة..

هل حقا وافقتِ على غيري؟ كنت أظن حبك نهر يرويني فاكتشفت الآن أنه بحر أغرقني!!..

من أنتِ لم اعد أعرفكِ؟! من قدر على نيل حبك الشفاف؟! لمَ يبدو بنظري سيد الهلاك جاء ليسرقكِ مني؟!، متى يلين قلبك السياف فاطمتي؟!، أهناك من سحركِ لتُعلني به انهيار وانحراف عن حبي؟!، من يزرع الورود بصحرائك؟!، وهل جذبكِ بدموع حبه الجزاف مثلي؟!..

من نثر الفرح بدفاترك.. ليحتويكِ قصه وغلاف؟!، من زرع قصائدك بوديانه.. لينقذ أنهارك من الجفاف؟!، هل سيبقى دوما عنيد.. ليزرع زهور حبك بسنواته العجاف؟!.

قتيلك نايف

..*

اقتربت امرأة صارخة شهرنان..

تلفتِ حولك صديقتي وأخبريني..

أترى الدنيا بيضاء بريئة.. فأنا يُتِعب قلبي كم التمثيل وخداع قلوب تحيط بأجوائي، قلوب في يوم كانت تنادي بحب وعشق لأنفاسي، أحقا كنت مخدوعة أم أنها غصبا خدعت وخانت أيامي؟!.

هويت يوما قلب أهداني جراحات وآلام كثيرة تنغص يومي، تؤرق ليلي وتفتتني آه منها تنخر في عظامي برد صارخ، أهدوني يوما سعادة العالم والكون داخل برعم وردة حمراء نضرة تنير أحلامي، لكن ها أنا استيقظت منها لأجده كابوس بشع المنظر، إخطبوط يسرقني ويرميني في بئر حرمان للحب وغرام العشاق، عنكبوت ينسج بشباكه ليخنق روحي وحلو أمالي بالدنيا، قنديل بحر يتابع لدغات تزيد تحسس مشاعرنا من قهر غرام.

خداع متقن وتمثيل بجدارة لأدوار بريئة وكأنك أنتِ من صرتِ المجرم، أنتِ من خُنتِ وبِعتِ روحكِ لاستغلال حماقة غيرك بسهولة، لعب بمشاعر لتمضية أوقات سعيدة دون حساب لغيرك ومشاعره الفياضة، خيانة أمانه روح أودعتك ثقة العالم ووهبتك نفسها حبا وكرامة، تمثيل وخداع دون حياء وصراخ عال بأنها لم تقصد جرحكِ بل كانت تنوي قربك لكن الله أراد بعاد.

استغلال لحبك بعودة وإدعاء براءة حتى بعد خيانة صارخة وغرور وتباه واضح لبعاد، كأنك صرتِ تمثال جلمود أو حجر صوان لن تشعرِ بضربات منهم قاتله أو حتى تلميح بإشارات وكلمات تقتل في الحال، تدميركِ وتركككِ دمية تلعب بها الدنيا لعبة إخفاء بوقاحة، استغلال وإيهام بأحاسيس سامية دون مراعاة لرب منتقم جبار.

أهونا في لحظة في نظر من ظننا أنهم لنا الدنيا والآخرة، هل بسهولة يرون خداع وتمثيل منهم مجرد جرح بسيط ستطيبه بضع كلمات واعتذار سخيف بمحادثة شاحبة الأحداث.

آه يا قلبي من كم التمثيل والخداع بدنيتنا، اصبري يا روحي فأنا وإياكِ مضطرين على التعايش معهم، تحمل إثارة غيرتك وتفاخر بوجود أخر وإظهاره أفضل منك ولأجله تستحق ما نالك من غدر، وأنت يا قلبي تجلد ومُر بأحداث رسموها بإتقان لتظهرك شخص مطالب للحب ممن لا يرضى.

بل والأصعب أني الآن أصبحت المُطَالِبة الجريئة بعناد، أصبحت الساعية لخراب حب أخر أنقى وأشهى بغباء، أصبر يا قلبي وسيظهر يوما ربي الحق ويعوضك هجر وقسوة قلوب أحببتها، رغم غدر ومحاولة انتقام من دنيا تَمَثل فيك دون حساب لمشاعر بني إنسان، كأنك تتحمل تبعات أخطاء غيرك ولهم الحق في رد عنف ما مَرُ به فيك، أصبر يا قلب وتجلدي يا روحي فهي أيام وستمر وتلاقي ربك ليرحمك شر بشر أتعبتكِ وظلمتِ وظلمتكِ.

..*

خُطِبَت فاطمة لتاجر ثري من "الفاقورة" وأُعلن عن قرب زفافها، فزوجها ثري ولا شيء يعطله عن إتمام زيجته سريعاً..

حُطمت أمال نايف على صخره الواقع وفقره، بكى بحرقة سنين طوال عاشها حبيس عشقها، تحطم فؤاده كرها لها وأباها وللنقود وللبشر أجمعين، فهم من فرقوه عن حبيبة قلبه،، سيندمون.. يوما ما سيندمون، هكذا قرر بينه وبين نفسه..

قرر استكمال حياته متخطياً آلامه، ذهب في موعده لمقابلة زياد عابساً محزوناً بعد انتهاء فترة الأسبوعان أخيراً اللذان مرا علي نايف كأنهما شهران لا أسبوعان، عندما استقصى منه زياد عن حاله ولمَ يبدو محبطاً هكذا، أخبره بكل ما مر به وضياع فاطمة حب حياته من بين يديه وخِطِبَتِها لأخر ثري..

ما كان من زيادة الذي يراه نايف صديقة الصدوق إلا أن نصحه بنسيانها، وأن يركز في عمله حتى يجمع ثروة طائلة تغنيه عن كل شيء وأي شيء، وقتها.. وقتها فقط .. سيندم والد فاطمة على تزويجها لغيره، وسيغيظهم ويكيدهم جميعا بزواجه ممن هي أعلى منها شأنا ومكانه حسب ونسب وجمالاً أيضاً.

حاول نايف استيعاب كلمات صديقة لكي ينفذها على الرغم من عدم اقتناعه بإمكانية نسيان فاطمة، ثم أخيراً طلب من زياد أن تكون مقابلاتهما كل أسبوع وأن يضاعف البضاعة أيضا، فالسوق مفتوح على مصراعيه لهما، وحرام أن يضيعا من أيديهما هذه الفرصة ولا هذه الأرباح المؤكدة الحدوث.

تشبث زياد برأيه ورفض قائلاً: مستحيل يا نايف إن الأمر في غاية الصعوبة، تعلم رغم إني فلسطيني من عرب 1948 إلا أن حملي لهوية إسرائيلية وإقامتي في إسرائيل يمثلان عائق كبير أمام عبوري الحدود فهي مغامرة كبيرة قد تكلفني حياتي، وأنا رجل كبير على هذه المجازفات نايف، ألا تُدرك المجازفات الكثيرة التي أمر خلالها لقدومي إليك مرة كل أسبوعين كيف أتغاضى عن كل ذلك لأتي كل أسبوع، أنسى الأمر، صدقني هو أمر مستبعد لاستحالته.

كان رد فعل نايف باهت.. فهو لم يستوعب معنى فلسطيني ويقيم في إسرائيل صُدم، لم يتخيل أن صديقه إسرائيلي، نظر إليه شذراً للحظات، ملامحه تبدو عربية لكن شيء بداخله يحدثه بأنه يكذب في جزئية أنه فلسطيني من عرب 48، فهم قبلوا مجبرين العيش بإسرائيل لكن يعلم أنهم فعلوا ذلك للحفاظ على التواجد الفلسطيني في الارض كي لا تطمس هويتهم، لا يوجد منهم من يقول أنا إسرائيلي هذه، سرح قليلاً ثم حاول تدارك الأمر فهو لم يجد في قلبه غضاضة لهوية زياد، لم يشعر بالنفور منه لذا لم يهتم؟، بما سيفيده ذلك بالتأكيد لا يهمه..

طالما أنه يستفيد ويتكسب عن طريقه، لا مانع من تعامله معه والاستمرار في علاقتهما التجارية، فما بينهما مجرد تبادل مصالح فقط دون حديث عن السياسة وشعابها... هو يجلب بضائع زهيدة الثمن من إسرائيل ليبيعها بثمن أعلى بلبنان، ويتقاسمان الربح.. تجارة بلا رأس مال تدر عائداً مجزياً. ما الضير بذلك إذن؟ لا يهمه ان كان زياد فلسطيني أو إسرائيلي.

تعمد ألا يرتبك وحاول أن يبدو متماسك متفهم للموقف، كما حاول أن يكون طبيعي، وليتأكد من أن صديقة زياد لن يقاطعه بعد أن أخبره أنه إسرائيلي..

أعاد نايف عرضه باللقاء أسبوعيا، فبقدرته ترتيب مكان أكثر أمناً، يمكنها اللقاء فيه، دون ان يلحظهما أحد، فهو يعلم من الدروب المخفية أكثر مما يعلمه حراس الحدود ذاتهم...

..*

شهر نان يا حورية من السماء اخبري حبيبي، أنا في خطر وهو أيضا وهذا إنذار مسبق عله يسامحني ويعود، من عاشقه اللعب الخطر بين متاهات كلمات تحوي مصائد للضعاف أناديه، أوصلِ إليه صوتي لأخبره، حبيبي تعال واستمع الحياة بلا هدف دونك.

أنا حبيبتك العابرة لأوقاتك لأوزع ابتساماتك بهدوء، لأمنحك سعادة كون وردي أزرعه بقلبك وحياتك، عد لحياتي اعتذر إليكَ يا مالك عمري، بعودتك سأقيم حفلة بين النجوم.

سأرتدي فستان أنيق، وبطلة كحل مرسوم، ولمسة أحمر شفاة، وقليل من ضربات فرشاة بالحمرة على خداي، ونفحه برفان ناعم العبير، أظهر لحبيبي الغضوب وأهدئ الأجواء بأقاصيص وحديث معهود، وعندما يعلن

استسلامه أمام أسلحتي الموجهة، وعليهم سلاحي الساحق الماحق نظرات العيون الهائمة المصوبة لعيون وقلب حبيبي حلالي زوجي الغالي، عندها..

سيرفع راياته البيضاء مقدما اعتذاره عما بدر مني أنا من خطأ، فحبيبي مسامح نقي القلب والسريرة يسامحني ويمنحني العفو وصكوك الغفران لجمال وصفاء روحه. حبيبي الأثير.. مالك العمر والروح.. مليكي ومالك قلبي الوحيد..

معك سأطير بين شباك الهوى في السماء، يا حوريات البحار أسحري حبيبي كائن خفي لنهرب من نظرات الحياة، يا شبكة منسوجة من روحي وخيالي خذيه لنغوص بين النجوم، ازرعينا أمواج بين البحار، أعيدينا لزمن لا يعيش فيه سوانا أنا ومالك قلبي وضي عيوني. شهر نان هل تستطيعي جمعي أنا والحبيب؟.

..*

كان نايف يُسحب مُغيباً عن حجم المأساة إلى بئر الخيانة، فهل ضيعته قسوة الحياة؟؛ أم جهله بما هو فيه؟ تناسيه ما كان وما يكون؟، فضل اجتياز الطريق الأسهل توهماً في النجاة؟!؛ هل سيتخبط كثيرا حتى يصل للطريق الصحيح؟ هل سيصل في الأساس للطريق الصحيح؟ هل يريد النجاة؟، أم سيجد من يأخذ بيده ليقف على طريقه الصحيح؟ فمن الغباء الارتكان بالثقة لقلوب وعقول تعودت التلون لإشباع غرورها بالتفوق والذكاء.

كم هائل من الزيف والتمثيل والخداع وقع نايف في براثنه، تتكسر الأوردة كزجاج مصري الصنع على أبواب قلوب أجادت كل هذا الغش، والمأساة أنها تتفاخر كأنما قد أجادت علوم الدين والدنيا، أقبلت على حدود السماء متباهية، كأنما هي آلهة للحب أو العشق لا سبيل للفرار منها، ثقة خالية من أي مشاعر تسير بتفاخر وهي صماء جوفاء، وصل بنايف حد الغباء فصدق الزيف والكذب ونبذ الحق والصفاء.

صحيح بكل منا شر العالم، وخير وصفاء الملائكة، لكن من ينتصر ومن يخسر ، ما الذي نظهره للعالم وما الذي نخفيه؟، من يحكمنا وسط غيمات تناقضنا؟، هذا هو امتحان نايف فهل ينجح؟!..

رغم غرابة كون الطريق القويم مليء بمطبات الماضي والحاضر، لكن الله موجود يساعد من يدعو، يرحم بمغفرة وعفو من تاه وسط شرور تعيش بتجاويف الإنسان، فهل يا الله من مغيث ينجد نايف من شر ذاهب إليه بقدمه؟، الأمل فيك ربي أغثنا فقد ضللنا الطريق، أغثنا فها نحن نغرق أنفسنا بأيدينا، أغثنا يا الله بنورك العظيم.

فنايف لم يضيعه إلا رغبة دفينة في عيش الحياة بحب وبراءة، عشق دون خسارة روحه بظروف يتخبط فيها بضعف، يتمنى ثقة متبادلة وفكر واضح واحتواء وتضامن يقربه من حب العمر.

..*

أعتذر زياد بسبب تشديد المراقبة الإسرائيلية للحدود، وخوفه أن ينكشف أمره، خاصة بعد العمليات الفدائية المتزايدة على الحدود، إذا قبض عليه سيعاملونه كجاسوس إسرائيلي خاصة مع هويته الإسرائيلية، وسيمر وقت طويل حتى يُثبت أنه مجرد تاجر بسيط يمرر بضاعته بهذه الطريقة، وقد لا يقتنعون بأنه فلسطيني من عرب 48، لكن وعد نايف بالتفكير في الأمر، عله يجد طريقة ما بمساعدة نايف وخبرته عن الحدود وتلك المنطقة.

أبتلع نايف الطُعم لذا أنبرى مهاجما الفدائيين، وسَبَ الفلسطينيين، هؤلاء الأوغاد سيدمرون مشروعي التجاري، كيف هذا؟ لا يمكنني السماح بذلك!!، هل بعد أن تَذَوقت طعم المال والثروة الرائعان، يَضيع مني كل ذلك هكذا هباء؟!، سأحارب كل الدنيا فلا يُمكِنني التنازل عن كل هذا...

ترك زياد على وعد بالتفكير في حل أو طريقة تساعدهما في تمرير المزيد من البضاعة المهربة، فنايف ولد وتربى وسط هذه الأحراش، هو أدرى بشعابها ولا يوجد من يحفظها غيبا مثله، لذا أخذ على عاتقة محاولة إيجاد حل لهذه المعضلة التي قد تتسبب في إيقاف نشاطه التجاري بكل ما يدره عليه من أرباح خيالية.

مرت الأيام تتلوها الأيام وهو يفكر في طريقة، ما زاد حنقه وحيرته، غياب زياد ست أسابيع كاملة، أختفي هو وبضاعته وثروته المستقبلية.

ظل يراقب الحدود عله يأتي، لكن دون فائدة.

توترت أعصابة وبعد أن كان كما ناموسة صغيرة، تطير دون أن يلحظها أحد إلا إذا أحدثت صوت، تحول كما زينه باب ثقيلة الظل كلما مر قليل من الهواء بها صدعت الجميع بأصوات غير منظمة، كان يثور ويعلو صوته لأتفه الأسباب، مما زاد مشاكله مع والدته وجيرانه وزملاء عمله اللذين لم يعتادوا منه الاهتمام بشيء أو حتى سماع صوته، لم يدري أحد لمَ هو هائج دائما هذه الأيام.

كان يحدث نفسه كثيرا قائلاً:

هل أعود مجدداً لذلك الفقر المدقع؟

لا يمكنني السماح بذلك! لكن ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟

الذَنْبُ ذَنب هؤلاء الفدائيين!!..

هم سبب غياب زياد وبضاعته..

آه لو يختفون من هنا..

لمَ لا تقبض عليهم الحكومة لنعيش كما نريد،

هؤلاء الأوغاد أضاعوا أموالي وأرباحي...

ظل يتابع الحدود وقلبه يرتجف رعبا من أن يُكشف، رغم أنه يخفي دراجته المتهالكة بين الأعشاب الخضراء كي لا يلحظها الفدائيين.

هكذا أخبرة زياد في أحد لقاءاتهما السابقة:

"نايف أخف دراجتك لا تتركها هكذا أتريدهم ان يلقوا القبض علينا ببساطة ويسوقوننا كما الماشية"

زياد.. هل ستأتي؟ ومتى؟ تأخرت عليَّ كثيراً صديقي.

آه لو أستطيع عبور تلك الحدود.. واجتياز تلك الأسلاك لأذهب إليك عليَّ أرى ما أصابك ولِمَ تغيبت عني كل هذه الفترة!!، لكن كيف وأنا لا أعلم حتى أين يقيم؟.

كان دائم الذهاب لمكان لقائهما المعتاد فاقد للأمل، يتمشى هنا وهناك وإذا فجأة، لمح من بعيد شبح آت باتجاهه ويقترب بخفه، ارتعب كثيراً وهمَ بالفرار..

لكن سمع اسمه ينادي به الشبح بصوت مألوف..

وقف وتَسَمَع للصوت مرة ثانية وهو يعيد النداء عليه، تهللت أساريره لملاحظته، وأخيرا انفرجت شفتاه عن ابتسامه، لتعود إليه روحه من جديد،

ها هو قد عاد زياد من جديد..

آه صديقي.. أين كنت!؟

انتظرتك لفترة طويلة،، لمَ اختفيت هكذا؟

ظننتك لن تأتي مجددا،

فقدت الأمل وشعرت بالموت لغيابك!!..

أخبره زياد أنه يعاني كثيراً في تمرير بضاعته، ويحتاج لدفع الكثير من الرشاوى والعمولات ليمرره الجنود من خلف الحدود، خاصة مع العمليات الإرهابية المتزايدة، وتصعيد الجنود الإسرائيليين على الحدود لاحتياطات الأمن.

نقاط المراقبة نايف زادت كثيراً ولم أعد أستطيع المرور بسهولة.

كيف تتحرك أنت يا نايف بسهولة هنا بالجنوب؟

ألا تُعاني مثلما نفعل نحن؟!

كيف تعبر أنت من هذه الحدود ألا تخاف؟!..

أسئلة متنوعة وكثيرة..

الغريب أن نايف أجابها بتلقائية دون ان يستوقفه ضميره أو حتى حب الاستطلاع والفضول.

زاد في التفاصيل فوصف لزياد أساليب معيشة الفدائيين وأماكن تواجدهم وتجمعاتهم، حتى الممرات ومدقات الجبال التي يسلكها هو وغيره، رسمها نايف لزياد بدقة على الورق بما يسهل الوصول إليها واستغلالها ليمر ببضائعه كيفما شاء..

حدد له مواقع الحفر التي يتخذها الفدائيين مراكز مراقبة نهاراً، لينطلقون ليلاً أواخر الأشهر العربية المظلمة، مستغلين هذا الظلام الدامس أو ضوء الفجر الضعيف لقص الأسلاك والتسلل لإسرائيل.

قال نايف لزياد أنه يعلمُ أشياء كثيرة.. هل أخبرك كيفية استقطاب الأشبال وتجنيدهم؟، أتعلم سأخبرك أيضا عن تدريبهم عسكرياً على استخدام المدافع الرشاشة والقنابل في معسكرات مغلقة بالبقاع.

لدي الكثير والكثير من المعلومات سأخبرك بها جميعاً، لكن لا تنقطع عني مرة ثانية هكذا أنت وبضاعتك.. وبدء السقوط الناعم..

..*

شهر نان اتركيني أنا لأخبرهم قصة حبي لأسأل حبيبي عما فعله ويفعله بحياتي ودربي..

ففي ثالوث الغرام لا شيء يضاهي قرب حبيب، وحضن عاشق هيمان، وتغزل مغرم بكل وجد وحنان، وأنا أشتاق إليك حبيبي، رغم علمي عدم جدوى اللقاء، فلا القرب يشفيني من وحدتي، ولا البعاد ينجيني منك حبيبي.

آه منك يا وجعي أنت، ويا صبر صبر قلبي على من فارق وأرسل صبره على صبري يصبرني، كأن صَبِرَ السنين صار دواء يُصبر من صَبرهُ صَبَرَ الصابرين، آه يا دموع من العين سالت وجفون على العزيز ناحت، متى الخلاص من حبيب يرى العذاب؟.

حب رجل يحمل الواقع على عاتقيه ممزوج بتفاصيل حبك.

فلتخبرني حبيبي لمَ أسكنتك بجوار الروح وشاركتك هواها؟!؟!

لمَ تأخذ مني أكثر مما تعطيني؟!

لمَ اضعف أمامك وتستكين كل أجزائي خانعة لهواك؟!؟!

لمَ سامحتك؟؟ وهل سامحتني؟؟

لمَ أحببتك بشدة؟؟ وهل بالمقابل أحببتني؟؟

هل ستعود لمملكتي؟؟

آه حبيبي الحب ضعف والقلب في الأصل ضعيف، والجسد منهك من خرف وتخريف، الحب آلم والروح في الأساس متألمة من قسوة وظلم الحبيب، الحب جبروت وأنا إنسان ضعيف فكيف لي بمجابهة بحر أمواجه صقيع وثلج سخيم ؟، تعبه وضائعة أنا ولا مفر، حتى صراخي سرقة المطر ذهب مع الريح دون عتب.

لم يعد أمامي إلا أن أعجن شرايين قلبي بالتجبر، وبالقسوة ارسم صوري، لكن عدني ألا أراك، فبرؤيتك تسقط هالة عنفي وأعود وردة برية مزروعة أمام أبواب مملكتك، فمثلك أنت خلق لتسقط أمامه المرأة دون إذلال وتصير في مجرتك ملكة الرايات.

لكن كيف؟

وحبك دوما فعل ماضي وحياة بلا أمل أو مستقبل.

..*

تشجع زياد عندما وجد نايف يقدم خدماته ويتحدث باستفاضة وسأله عن المصادر التي جمع منها معلوماته، ليُجيبه نايف بفخر..

أعرفها من بعض شباب الجنوب ممن انضموا إلى صفوفهم، أنهم يحفزونهم بشعارات الجهاد.

فرح زياد كثيراً حتى أظهرت ملامح وجهة سعادة غامرة لم يستطع كبتها داخله، لذا وعلى سبيل المكافأة بكل هدوء أخرج حافظة نقوده، أخرج مبلغ ومد يده إلى نايف به قائلاً هاك نايف خذ هذا ألف دولار مكافأة لك نظير ما أسديتني من معلومات قيمة..

كان مبلغ ألف دولار في السبعينيات مبلغ عن حق رهيب...

ألف دولار.. ألف دولار ظل نايف يكررها داخل تجاويف عقلة المريض.. لكن لمَ ألف دولار زياد؟!!

زياد: نايف حبيبي سأنقل المعلومات التي حصلت عليها منك إلى الإسرائيليين وقتها سيثقون بي، ويسمحون بمروري بسهولة وقتها استطيع أن ألتقي بكَ لأكثر من مرة أسبوعياً، أبشر صديقي سنستطيع العمل بلا توقف بعد الآن.

استغرب نايف كل هذه الكلمات..

فأعاد سؤاله لمَ هذا المبلغ؟

أجابه زياد: لأجل ما أخبرتني به سأبيعه نظير مبلغ ضخم من الإسرائيليين نايف، ألا تُدرك قيمة ما أعلمتني به؟!!

نايف: لا أفهم ماذا تعني؟!، أتريدني أن أكون جاسوس لإسرائيل؟!

صمت زياد لبرهة ثم أجابهُ بكل خُبثٍ:

ما منحته لك سأسترده ثانية، في إسرائيل يشترون هذه المعلومات بأعلى الأسعار صديقي، كما أن الأمر ليس تجسس فنحن لن نؤذي أحد هم فقط سيحمون أنفسهم بما سنخبرهم إياه، ويتقوا شر الأعمال التخريبية التي يتولاها من يطلقون على أنفسهم فدائيون.

ألا تحب إسرائيل نايف؟

نايف: لم أفكر بالأمر، لازلت لا أفهم!!

زاده زياد، أنا عربي مثلك، في الماضي كنت أكره إسرائيل تربيت على هذا، كبرت الآن وفهمت أن..

كره العرب لإسرائيل ناتج من أنهم ينقادون وراء حكامهم المستبدون، الذين يُسيّرون شعوبهم حسبما تكون مصالحهم هم، مستغلين السياسة والدين للوصول لأهدافهم في الحفاظ على رقودهم على كراسي الحكم، يريدون ضمان خلودهم كحكام.

هل قرأت في أي مذهب ديني أية أو ذكر لتحريم التعامل مع بني إسرائيل؟! ، لتعلم نايف أن إسرائيل هي دولة ديمقراطية، الشعب فيها يحكم نفسه، ويملك بيده قراره ومصيره، يمكنه تغير أي شيء حتى رؤسائه، عكسنا نحن العرب لذا اخترت الإقامة بين ظهريهم وليس بين أخوتي من العرب.

نايف: !!!!

أستمر زياد في حديثه، بكل دهاء وحرفية مستخدم طبقة صوت ملساء كفحيح ثُعبان:

نايف إسرائيل فيها حرية التعبير والاعتراض، يمكنك فعل ما تحب وقتما تشاء، وأن تقوم بكل ما تريد وقتما تريد، يمكنك الاعتراض حتى على الحكومة وأدائها دون أن يطالك منها أي أذى، أو تطارد أنت وكل من يعرفك أو عرفك يوماً، اخبرني أتوجد دولة عربية يحدث فيها هذا؟! بالإضافة إلى أنه يمكنك أن تُحب من تشاء، لا يمكن لأحد رفضك لأنك أقل منه ماديا طالما هناك حب تلغى كل الحدود.

أتعلم أنا موظف ببلدية "نهارية" القريبة من الحدود. أشتري هذه البضاعة من "عكا" وأبيعها لك في لبنان لزيادة دخلي، هناك أنا حر في أن أسعى لزيادة دخلي وأن أعيش ميسوراً لا ينقصني شيء هذا حقي في الحياة تكفله لي الدولة والحكومة، ألا تريد أنت أن تعيش ميسوراً؟

أخيراً نطق نايف قائلاً: نعم أريد، بالطبع أريد ذلك.

..*

ها قد عدنا من جديد لنسمع حكايات شهرنان لنقول يا أنتِ من رواياتك هل من مزيد؟!! معها نعود لاشتهاء احتساء فنجان كبير من الشاي والقهوة كمزيج عجيب، خليط يمثل وسيلة تشتيت قلب عن أحبته كائني عالم الخيال السارح المهيب، مكون تنبيه للعقل ليخرج من عالم الأعاجيب، هذا العالم الشهي البهي المليء بقصص العشاق، هَلِمُ لتُخبركم شهرنان إحداها.

تقول شهرنان سأخبركم عن رجل عشق العشق، وسطر به أحلى وأغلى درر الكلمات، أهداها لمن ملكت منه الروح كملكة أمازونية ليحولها بنبضاته لنهر حب حالمة القسمات، كتب وكتب حتى باتت هي الأخرى تكتب فيه أقوى الأحاسيس وتنشده أصفى الأبيات، لتغني له يا نهر الحب،

يا من سواه الله بقدر وبيده جمِلَ بحق من خلقك، حن على من هواك وبقلبه غرامك قد سَطر، نقشك بالحفر الغائر والبارز في الروح، ومن بعدك وتجاهلك بات مجروح مذبوح، يا ملك الإحساس يا أمير الكلمات يا نبض العمر وسلطان الألحان، عمري بك مرتبط كأساس البنيان.

يا رجل يجلس على عرش القلب وتوج نفسه سلطان العشاق، مالك كل إحساس وحرف ينبض داخل ذراتي، يا من لأجلي تجبر وطرد من سواه وتمركز في بؤرة قلبي وعقلي وملك الروح ليطير بها بملكوت خيال الإلهام.

يا من تنقلني من بين أحجار فردوس جنه أحلامي، وأمسك بيدي وسار على أرض زحل الكوكب، من كان لي ماء وهواء لأتنفس وأعيش، من أنعشني بغنائه وكلماته، من روح عني وزين بي قلبه نرجس وقرنفل بهيام فنان صوفي الأشعار، من سواه المولى عز وجل لينسيني الآهة وأية أحزان.

من يسقيني الفرح كؤوس عسل بليلي لأرى نجوم سمائي مضيئة ببهاء، من يطعمني هناء شهد الملكات كل صباح، من يخرجني من أوهامي وظنوني برحلات وجولات بكواكب هذا العالم السيارة، لنصول بين زخرفة خيال الأشياء بكل مباح ومتاح وحتى ماهو باستحالة ظهور العنقاء.

من يدخلني عوالم إنس وجان بمهارة، ليسبح داخل أفكاري وينقذني بقبلات حياة بكل وداعه وسماحه، من يضحك فينير القلب بضيائه، ويثير ويداعب مخيلتي، فتنهار وسط كتابات محتارة في وصفه بدقة ومهارة فنانه ملتاعة، يا أنتَ أتيت عالمي لتنشلني من عالم أرواح أرضية وتصعد بي لسماء العلى وخيال الأرواح الهيمانة.

يا من ضحكاته وحتى بسماته تنثر لاستغرابي لروعة هذا العالم المحتاج بشره لإنعاش وإعادة إحياء، لاستغرب حتى أنفاسي وكيف لا أعطي الله القدر الكافي من الشكر بعبادة خالصة النية بصفاء بال وهدوء، واستبشر بمدى جمال وكثره نعم الله علينا لكن يحزنني جفائي مع ذاتي لأني أجحد نعم الله بغباء متمثل في حزني وكآبه اجبر حالي عليها لضياع أو افتقاد شيء ما.

آه يا هذا بسماتك طفل يلعب وسط البشر ليعيدهم أحياء، يا هذا أعشق وجودك بحياتي واراه نعمه وهبها لي الخالق، أرسلها بوقت وميعاد كم كنت اشتاق للقائك، آه يا ربي أهواك يا ملك الملكوت ومنظم شئونه..

أعشقك يا مالك كل الأكوان ومالك الروح، نصيبي وقدري بيديك نعمه وهدية يا مالك رزقي وحتى خيري وشري، يا منجي من أسوء أفعالي ومن شر اعتمر كياني ومنقذي من هوائية تتملك لخصالي، يا الله امنحني القوة والقدرة لأوفيك حق عبادتك يا رحيم بكل الضعفاء.

..*

زياد: إذن هيا نعمل بجد وإخلاص، لأستطيع أن أتي إليك يوميا..

نايف: ماذا يمكنني أن أفعل لنحقق هذا؟!..

زياد: يُمكِنكَ الكثير.. عليك أن تعمل لتكسب الكثير وترد إهانه عدنان وفاطمة، تنتَقِمُ من كل من أستصغر شأنك، أو استهان بك..

ألا تريد الانتقام من تلك الحكومة التي ترمي إليك القليل وهم متخمة جيوبهم حد الفيضان؟!..

استمر زيادة ينفث سمه الزعاف، ويثير في قلب نايف أشجانه وآلامه القديمة مستغلاً إياها لصالحة، كي يعمل لحسابه بجمع المعلومات عن الفدائيين وأنشطتهم داخل الجنوب اللبناني..

أثقلت الأوهام والآمال الزائفة رأس نايف، فبدأ في الخضوع.. لمَ لا.. أُليس من حقه تأمين حياته هو أيضا والاغتناء، الكل يسعى لتحقيق طموحاته وآماله فلمَ ليس هو أيضاً..

أذعن نايف وأعلنَ الخضوع لزياد.

تهللت أسارير زياد طربا، لكن باغته نايف بشرطُ..

نايف: زياد أريد الحصول على الكثير نظير كل ما سَيُطِلَبَ مني من معلومات وخدمات، فهذا أمر خطر وإذا كُشف أمري سيتم شنقي، أريد مقابل كاف ويزيد عن هذه المخاطرة..

زياد: لا تقلق نايف سأطلب تخصيص راتب شهري ألفي ليره لكل منا، ما رأيك؟..

نايف: يا الله ألفي ليره (بُهَت وفتح فاه كأبله)

زياد مجيباً نعم.. نعم ألفي ليرة..

لكن.. عليك معرفة كل شيء، وجمع كل ما تستطيع الحصول عليه دون إثارة الريبة أو الشك،

أحصل على خططهم، مواعيدهم الدقيقة، أعدادهم ومعداتهم، احصل على كل التفاصيل نايف!!.

..*

آه منك نايف من التراب والى التراب ستعود؛ فهل هناك من يستحق ضياع جنة الله لأجله، من تضيع بسببه وتسحق العهود؟!!.

الموت لا يستأذن في القدوم! فهل حقا مستعد أنت للتخلي عن الدنيا ومتاعها والفوز بالجنة؟! ها هي تصرفاتك توحي بأنك تقول لا، ما أكثر الأشياء التي قد تُفكر بها بلحظتك الحاسمة عند النهاية هل ستظل تفكر في المال والانتقام؟؟!!.

في زمن تلوث فيه البشر ببقايا الذنوب الجسام، بخبث الثعابين، طمع الغيلان و بقايا الآثام، تلوث بسوء الأفعال وما تجنيه أياديهم على مر الأيام، يتساقط البشر كما يتساقط الجراد في صحراء البيداء، يتساقط من نصفهم بالأحبة بمبررات واهية مع الأخلاء، يتساقط الأصدقاء ونعيش مدعين أنها سنه الحياة بغباء، يتساقط الإخوان ونتوهم صمودنا في مواجهة ما بنا من خواء.

يتساقط الكثير ويمضون قدما بجروح روح معلنه الوفاة بخفاء، تضيع النفوس والأرواح في الدنيا وتتيه بغربة وتتغرب مع الأهواء، في عالم البشر نتوه مع أفعال وتصاريف القدر، تضيع الجمل لنسقط في مستنقعات الحياة، نسقط ولا نحاول المحاربة لنعيش برضا وبركة الله لنعلو فوق كل الذلل بهذه الحياة، هكذا نايف اختار السقوط دون أي شعور بالخجل.

سقط نايف وهو عاقل لمَ يفعل، أختار الطريق الأسهل والأسرع لنيل ما يريد من الدنيا، تلك الساحرة التي تأسرنا بحكايات دوارة..

أعتقد نايف أنه ينظر ويتعامل مع الدنيا بإستحقار، لكن الأزمة انه لم يُدرك أنها تعلم أنه يُقَيُمها كمنارة منشودة، أنه يذوب كقطعة ثلج بالكأس فتُضيف لحياته المزيد من المرارة..

عامل نايف الدنيا كعشيقة وحبيبة لكن للأسف لم يستوعب أنها غدارة، تدور وتدير البشر فيها بوجوه مقنعه، غدر بالبعض مثله، والبعض يعيش بكل شجاعة وجسارة.

أضاع نايف عمره الأتي، لم يفهم أن الدُنيا ذاهبة ومعها البشر، وسيأتي غيره ليعمرها، هذا أمر واقع ليس بالجديد أو حتى نبوءة وبشارة، لا باق إلا وجه الله، لكن ولحسرة القلب لم يدُرك نايف هذا، لم يستعد لحساب الله وعذاب جحيمه.

..*

يا أنتِ قص علينا لمَ تبدو ملامحك حزينة كئيبة، ما قصتك؟ ولمَ هكذا تبدو حالتك بائسة وخطيرة؟!..

أنا يا سيدتي وضعي ميئوس منه فحبيبي هذا هو قاتل لحياتي.. نعم أنت يا سبب رده قلبي دوما في غرامك، فهيا اختار سبيل فراقي واثبت عليه قرار، وسأحطم قلبي وأفتته لأريحك من شر قربي لمجالك، سأخفي أشيائي وعواطف تتجاوز حدود سماء وارض حياتك..

سأبعدها عن سحب أسماعك، سأقتل حبي وعشقي الرافض لغيابك وأواريه تراب بركان يثور ليحرقه في اليوم ألاف المرات، ليلتهمه جمر نيران مشتعلة ليل نهار دون رحمه أو حتى هوادة عله يموت ويرتاح.

حبيبي عودتي إليك رده أفكار ومشاعر، كفر بالصدق وبراءة إحساس الشاعر، كره للذات فوجودك بحياتي ضعف وعذاب ارتضيه وبطيب خاطر، وكأني أصدرت فرمان عثماني بحرماني من فرص حياة أفضل، حب أنقى يختار صفائي دواء لحياته، رفض لإبداع والهام يسبح بين نجمات سحاب فردوس العدنان.

عودتي إليك هي عقاب روماني بمصارعة أسود عاداتك وأشيائك الخانقة لحياتي وأشيائي، مرسوم من بابا الفاتيكان بجلد الذات صباحا ومساءا تكفيرا عن عدم حبي لذاتي، فتوى من شيخ الأزهر بالقتل لكفر أحلامي وطموحاتي، هي ذبح للروح بسيف سوماري وكأنا في حرب تتار كل فريق ينوي فناء للأخر.

أخبرني يا وليدي وطفلي الأكبر، يا حبيب العمر لمَ تختار لحبيبتك العيش بين براثن كفر وإلحاد بفطرة كون وجمال طبيعة؟، لمَ ترميها في دائرة عقاب الذات؟، لمَ حبك قاسي التعبير؟، مصمت أجوف داخله خارج يغرق كدائرة الوحل؟!.

لمَ عصيانك يتجلى لإخفاء حب وعشق يعبق قلبينا وتحاول إنكاره؟، اسمعني مليا أنت مذنب في حق أرواح اجتمعت ببوتقة الحب، فلمَ هواك قاتل سفاح لمشاعرك قبل أحاسيسي وعمري يا عمري أنت؟!.

أتعلم أصبحت موقنة الآن بأن حبك فعل ماضي مبنى على خيبة حالي، على ضحكة ضاعت وسط تيه حالي معكَ، وسط غيبوبة عنف عشقيه تكوى قلبينا.

يا حبي اخبرني إذا كنت تنوي فراق وتصر عليه مستقبل درب وحياة، فلمَ جئت ودخلت حياتي؟، لمَ بقيت لتناغش أحلامي؟، لمَ قلت أريد الدق على بابك؟، لمَ كانت أمنيتك تخطية عتبة بابي؟.

..*

الفصل الثالث : أسلاك شائكة

نايف في إسرائيل

حاصر زياد ضابط المخابرات الماكر نايف، ولعب على أوتار فقره وعزف على أحلامه في الثراء بدهاء.

أجاد بجدارة استغلال ضعف نايف أمام المال، كما أجاد استخدام ضعف إيمانه بعروبته وقوميته، حاك ونسج بفن خيوط خيانة نايف بإتقان، ضمه قبل انتهاء اللقاء لقائمة خونه أنفسهم قبل بلادهم وعروبتهم..

تحول نايف في لحظات من مجرد شخص لا هم له في الحياة إلا أن يأكل ويشرب ويُحب ويتزوج إلى جاسوس نشط لإسرائيل.

عائشة: كيف لم يتعقل ووقع في براثن الخيانة أمي؟

حبيبة: حبيبتي الكثيرون يملكون قلوب ضعيفة مغيبة ضمائرهم، عائشة عندما يتفق الأنْذَالٌ معاً فلا تضطربي وتقلقي بل اهدئي.. أسحبي كرسيك في الحياة، تجهزي لمشاهدة مسرحية مبهرة، أبطالها مهرجي الدنيا، بتشجيع مُدَّعى الشرف والأمانة..

قوامها تفاخر بأخلاق مواربة، استغلال لجهل المحيطين وادعاء الأصل والإنسانية، حب الخير للغير، بذل كافة السُبل لخدمة الضعفاء، تمثيل الفناء من أجل الآخرين وإسعادهم..

لا تغضبي عندما ترين نجمهم يصعد لعنان السماء، فما طار طير وارتفع بزيف إلا كما طار وقع، دوما يكون سقوط هؤلاء مدويا وفاضح.، هذا لمن وعى وأدكر، هيا أكملي حبيبتي...

عائشة: حسناً..

استمرت المقابلات بين زياد ونايف عدة أسابيع، حتى تأكد زياد من ولاء نايف التام لهم، وانغماسه التام في وحل الخيانة، بدأت المرحلة التالية..

على نايف التدريب على أحدث الأجهزة ليكون جاسوس على مستوى لائق بعمله، لذا بدء زياد في رسم صورة وردية عن علاقة العمل القادمة، وعن أهمية تحسين مستواه وتدريبه، ليُزيد من إمكانية الحصول على أموال أكثر..

كانت الأموال هي مفتاح نايف الأصيل، الوتر الذي يلعب عليه زياد للوصول إلى موافقة نايف على ما يريده ويطلبه منه.

طلب من نايف أن يعبر الحدود معه، وذلك للتدرب داخل إسرائيل بأمان، دون مخاطر اكتشاف أمره هنا بالجنوب اللبناني، على أحدث الأجهزة والمعدات.

نايف: لا.. لالالا

هل جُننت أنا أدخل إسرائيل بقدمي!!، أتريد أن يقبض الأمن عليَّ؟!!، قد يراني أحد أفراد المقاومة فيقتلونني في مكاني، دون محاولة الاستفسار حتى عما أفعل.. لا لا مستحيل.. لن أفعل..

زياد: اهدأ نايف سأفهمك، الأمر مهم لمستقبلك!!

نايف: مستحيل أتريد أن أُخاطر بحياتي ومستقبلي هذا، لن يكون هناك مستقبل بذهابي لعدو مُعلن..

(قالها بكل ذهول وكأنما هو في عالم الأموات فعلياً)

تجمد نايف من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه، شعر رأسه وقف فزعاً، شعر أن شعيرات جسده كاملة قد انتصبت مذهولة مما يتخيل حدوثه، ترنح في مكانه ولم يستطع الوقوف على قدميه، لم يتمالك نفسه فسقط على الأرض جالساً، فالموضوع أكبر من قدراته على الاستيعاب.

لكن زياد ضابط لا يمكن أن تستهين به، لم يترك نايف يفر بعد أن استطاع تجنيده وهو أصغر جاسوس في الجنوب بهذه السهولة، لذا استمر في الطرق على الحديد وهو ساخن، فقد أراد شل حركته وإرادته وتفكيره كلياً..

زياد: نايف ستحصل على المزيد من الليرات عندما تتدرب فوقتها ستنتقل لفئة أعلى وستكون أحد رجالنا، سنكون دوما بجوارك لن يُصيبكَ أي سوء، وبافتراض تعرضك لخطر؛ سننقذكَ سريعاً، يمكنك وقتها ان تعيش في إسرائيل كبطل، فنحن لا نترك رجالنا يتعرضون للمخاطر، أو تختار أيه دولة تريدها لاستكمال حياتك فيها منعماً.

وكان الأمر أهون مما تخيل زياد، تم الأمر بعد أن وعد نايف بـألا يفضـحوه مستقبلاً أيـا كـان السـبب، بـإعلان اسمه ضمن كشوف عملائهم، وأن يزيدوا راتبـه بمـا يناسـب تلـك المخـاطر، وبالتأكيـد وافقـه زيـاد فمـا أسـهل هـذه الوعود مقابل ما سيحصلون عليه من معلومات.

أما نايف فكان يرى الأمر أنه يمنح الإسرائيليين معلومات تافهة ليست ذات بال، مقابل مبالغ ضخمه، تحوله من حاله بؤس العيش لملك في زمن قصير..

لم يُدرك أنه يُخاطر بكشف عمليات تُقلق مضجع الإسـرائيليين خاصـة فـي الشـمال، وأنـه يعـرض أبنـاء جلدتـه لمخاطر القتل والتعذيب بسجون عامرة بسجناء كل ما فعلوه مطالبتهم بحريتهم وحرية بلادهم.

أقتنع أن عليه التدريب أكثر ليكون أكثر أمناً، وأخيراً وافق على الذهاب مع زياد ليضمن عدم كشف أمـره يومـاً ما، فالتدريب أصبح ضرورة للحفاظ على أمنه وحياته ومستقبلة المزهر معهم.

لذلك طلب إجازة متحججاً بحاجته للسفر لشراء بضاعة جديـدة والتعـرف علـى مـا هـو جديـد وحـديث فـي هـذا المجال، انطلق بدراجته إلى نقطة الالتقاء في الجنوب، أختبئ مستغلا الظلام بين الأعشاب..

كان كل ما فيه يرتجف، فقد كان توتره يصعد بِرَوحِه لعنان السماء، ويهـبط بقلبـه لجـوف الأرض، ظـل يحـدث نفسه عما يشعر به.. أشعر بفراغ يصل حدود النجوم وضياء السماء، بوحدة تتغلغـل نفسـي البشـرية بجفـاء، بحنـين قاتل مسيطر على روحي لتذهب هباء.

أختنق... بخيال أسود يتحكم باللاوعي ليعوى كذئب دون حيـاء، بأشـباح العمـر تتخفـى بليونـة قـط تنـبش قبـور الأخلاء، بأنفاس تسرح هنا وهناك تتجول كيف تشاء، أتعذب... بخبث العالم يحيط الكون ليخنق كـل صـفاء، بسـهاد قاتل يسحب ليالي الجميل نحو فناء، بعذاب يخنق أيامي بقسوة قاتل يهوي حسناء.

..*

شهرنان انجدي قلبـي الغريـق، عاشـقة أنـا لرجـل فريـد، هـو حبيـب وصـديق قريـب، لكنـى معـه دومـا عنيـده، فاخبريني ماذا أقول؟، أوجدي لي الحل لحبه في العلن.

لكن كيف؟ وأنا من له دوما أقول ربما كنت رجل من خيال، أو ربما رجل في السما يطير، أو قد تكون ملئ السمع والفؤاد وتتجول داخل الأساطير.

أو قد أظن أحيانا أنك من واد خطير، قد تكون فارس من دنيا الغيب والأعاجيب، لكنك في الحقيقة وعندي أنا؛ ما زلت رجل تمشي وتسير دون أن تثير الأعاصير، رجل قد تكون مغامرا، لكنك ما زلت بشرا تأكل وتشرب وتثير الجنون بشر مستطير، قد تحن لعالم حنون بشوش.

لكنك معبق بقسوة وظلم اكتسبتهم من صداقة السنين، حولتك الحياة لمسخ ساخط على دنيا البشر، شخص قاس على النساء دون سائر البشر، فهل أنت رجل من خيال؟، أم أظن بجنوني أنك مثل سائر البشر؟.

سيدي لا تعش الخيال، ولا تستهين بقدرتي على استيعاب الرجال، سأتركك فقط بين سحابات خيالك لأنني مستمتعة بمشاهدة شطحات أوهامك، فسكونك درب من خيال وفتون.

عشقك بات سبيل لمجاذيب معاتيه الغرام، مغامرا أنتَ طائر سابح بين النجوم أنت، مغرور ومتكبرا فلتلمس الأرض يا هذا، عش الواقع والحياة فلست بأعجوبة ولا أسطورة من خيال، أنت رجل من طين وقليل من ماء مهين، أنتظر هنا.. قر هنا.. وأسكن هنا.. أنتظر مني الحنان والكلام.

سيدي أحذر شر يتطاير من عيوني، فجنوني أصل متأصل ونار، أنا أنثى من غيرة، حبي متشعب يعشقه كل مار لكنني.. لكننا.. اخترنا حب عشق كالمنار، فأين كل وعد قُلته هل أنت بار؟!، كالوالد ووليدة كنت معي وفجأة تحولت لخيال غبار، كنت يوم ملاك حارس وفجأة تحولت لشيطان ومارد يسقيني المرار.

هل تعلم حتى عشقك لعنادي هو عشق مبررا لأنه يزيد بك الكبرياء، يجعلك تجوب عوالمي لتثير بقلبي الإباء، لتتفاخر برُتب تخدع في الأنثى الذكاء لكن.. هيهات.. هيهات.. فأنا لست في عالمك كسائر النساء.

..*

ما أرعب نايف تخيل أن يشاهده أحد أفراد المقاومة، فهذا هو وقتهم الأثير للانطلاق لتنفيذ عملياتهم ضد الكيان الإسرائيلي، حاول تخيل الفرق بين مشاعره الآن وهو يسعى للثروة والحياة ضارباً عرض الحائط بأهله ووطنه، ومشاعر ذلك المُضحي بحياته في سبيل تحرير بلاده، المُجاهد في سبيل قضيته..

ألتمس الأعذار لنفسه، هم السبب فقد تركوني لأعيش الفقر الشديد، كيف تخيلت الحكومة أن أُعيل أسرتي بهذه الليرات الزهيدة؟!، حتى فاطمة حبي الجميل.. تركتني من أجل أخر أكثر ثراء لتعيش حياة رغيدة، أنا أيضا عليَّ السعي لأعيش حياتي براحة وسعادة، سأعوض كل ما حرمت منه، لن يمنعني أي شخص أياً كان من الوصول لهدفي ونيل حقي المسلوب في السعادة والثراء..

أكمل حديثة مع نفسه قائلا:

آه من شيطاني يناوشني ويُتحايل لأتحول لكائن أخر لم أكنه يوماً، بكل الأساليب يلاعبني وحجج تبريرات تبدو بعقلي منطقية يطالبني أن أكون شخص مغايرا يثيرني بأوصافه، يأتي دائما ليقنعني في أوقات انكساري.

آه من وسوساته تجعلني أصرخ طالب التحول لأخر، أخبره بأني أريد نفض عباءتي البالية من الأخلاق فهي لم تعد مجدية لا أريدها أن تغطني، وإزالة ما يطرز روحي من طيبة ووقوف مع غيري فهم دوما سر آلامي..

محو كل ما تربيت عليه من خير خاصة تلك المسماة اعتذار عند الإساءة للغير لحدوث سوء دون قصدا مني، سأنزع تلك الصفات الغريبة المريعة التي تحيط عباءتي من حب لغيري، الدعاء للغير حتى من يؤذونني، تمنى الرزق الواسع للجميع ممن حولي وكأني صرت ملاك، لا أريد الألوان الزاهية من غباء مشاعر جارفة لأناس ليسوا من عالمي.

أريد قص تقديري للغير ومراعاة ما يمرون به على حساب نفسي، سأفتت شريط كسر خاطري لآجل آخرين مهملين يسحقونني بإهمال واستخفاف، يقولون أن زينه التفاؤل وتوقع الخير والظن الحسن من أفضل زينات المرء، لكني سألقيها أرضا لا أريدها سأحرقها كلها واجعلها رمادا وانثرها هباء في الجو، وهذه النقوش ما هذا حياء وخجل وصبر صفات بالية ضائعة وسط أخلاق وتربية مفقودة لا تستخدم ومصيرها يوما الفناء، سأحيك ملابس

جديدة مزركشة زاهية تلمع تعمي الأعين بكل مجون، ملابس من تلك المنتشرة لأثير العالم وأحوله لمخبول مفتون، سأتحول لإنسان عادي يدور معهم في دوائر مسكونة بخداع وغش مأفون..

سأصير نفسي وروحي لثعلب أو ذئب أو حتى حيه أكولة، تخطف قلوب وعقول بخبث وحيله وتعيش على حساب الكل سأتحول لمارد جبار يبدو قط لطيف، سأمارس شرور الدنيا من خلف زجاج البلور المزين بنقوش الورد.

إن هؤلاء الفدائيين يعيشون الوهم، سيطردون من هنا كما طردوا من الأردن هي مسألة أيام، لن يستطيعوا التغلب على الإسرائيليين فهم الأقوى والأكثر أموالاً وسلاحاً، ألا يرون أنه مقابل كل إسرائيلي يُصاب يُقتل ألاف الفلسطينيين يا لهم من أغبياء، ألا يعقلون عدد من منهم ملقى في السجون،

بالتأكيد أنا على صواب، أعرف كيف تؤكل الكتف، لن أكون كتف يأكله شخص أخر بعد الآن، سأكون أنا الأكل لكل الأكتاف..

حبيبة: أبنتي شيطانه فعلا بارع استطاع إقناعه، لم يُدرك إشارات الله التي تنير حياتنا وتنجينا من هذه الوساوس، أحيانا يرسل شخص لنراه يثبت أمام ناظرنا وعقولنا أن أفعال كفعل نايف هي نتيجة أوهام خيال مريض، تعب من زيف أناس كثيرون حوله أو ضعف نتيجة ظروف عاشها لكنه لم يحاول تخطي وتجاوز محنته، فالخير ما زال موجود والحب أيضاً يستعمر قلوب وممالك، عندما يفيق من غيبوبته سيكون قد فات أوان العودة..

حبيبة: هل انتهيتِ من درس وعظك أمي؟، لا تقاطعيني بنصائحك الذهبية هذه أرجوكِ، كل هذا لتخبريني أني ضعيفة في مواجهة ظروفي، هو لم يتحول لقعيد في سن صغيرة، لم يشاهد حرب أبطالها أخوانه، لم يقتل أبناء عمومته أخاه وجاره، أمي لا أحب هذه النصائح البالية..

حبيبة: درس وعظ؟!!.. أكملي قصتك لا أريد الشجار معكِ في منتصف الليل، هيا أكملي أو دعيني أنام..

حسناً سأُكمل ظل نايف ينتظر ظهور زياد لأكثر من ساعة ونصف مرت عليه كأنما هي عام، كل ثانية تُمثل مسلسل رعب يقتله خوفاً وفزعا، لكن فجأة قطع حبل أفكاره، صوت خشخشة ووقع أقدام آتية، ثم رأى ومضات متقطعة خافته يصاحبها صوت خفيض يطالبه أن يتبعه في هدوء، ليبدأ مرحلة جديدة من خيانته،

رعبه أثر على تقدمه فقد كان يتعثر كثيراً، لينبهه ذاك الشبح بالتزام الهدوء كي لا يُفضح أمرهما، مما زاد من تلك الغصة العالقة بحلقة، شعر بطعم العلقم بفمه، جو التخفي أثار غثيانه ليتمنى العودة لمنزلة، فلم يعد يرغب بالثروة، فقط يريد العودة كما كان.

نظر للأمام رأي حائط من أسلاك شائكة كان يفصله عن بئر خيانته القادم، ويبعده عن بحيرة حياته الماضية ببراءة رغم عفونة ما قاساه فيها، فقط أسلاك شائكة تفصل ما بين ما مضى وما هو آت من خيانة يُدرك أبعادها..

نوع من التعفن لن يُجدي معه أي صابون بهذا العالم أو حتى عطور باهظة الثمن سيحصل عليها بنقود ملوثة بدماء رفاق وجيران يتسبب في هدر دمائهم غدراً.

وصل لنقطة الالتقاء استقبله شخصان آخران بالزى العسكري الإسرائيلي مما زاد رجفة جسده، لم يتحدث أياً منهما وأشار إليه أحدهما أن يركب السيارة، لتنطلق بهم بعد أن جلس بالخلف وسط أربعة جنود ذوي نظرات حادة متفحصة، أرعبته وأربكته أكثر حتى شعر بالعرق يتصبب منه ويغطي جسده كاملاً.

ما أقلقه أكثر هو تحدثهم سويا بالعبرية، ليشعر كما لو أنهم يضحكون عليه، هل يسخرون منه لأنه باع وطنه؟!، حتى زياد كان يُقهقه معهم غير مُبال به، لم يُحدثه بكلمة واحدة، لم يكلف نفسه عناء السؤال عن حاله، لم ينظر إليه حتى.

ظل يُشاهد الطريق على ضوء السيارة، ولاحظ أن زياد يُشير للنقاط الأمنية عندما يصلوا إلى إحداها، فتُفتح لهم الطرق دون الحاجة لتبادل أية كلمة.

رغم انتشار تلك النقاط بكثيرة على الطريق، إلا أن سيارتهم كانت تمر سريعاً دون تفتيش، أما باقي المارة فكانت تُفتش سياراتهم بطريقة مستفزة، وتخرج محتوياتها وتلقى بعيداً كما لو كانوا يُخرجون أمعاء دجاجة ستطهى، مما جعله يستغرب كثيراً كيف كان زياد يشكو من صعوبة اجتيازه الحدود وها هو يَشير فقط فتفتح له كافة البوابات ليمر بسلاسة.

..*

يا شهر نان أحكي المزيد من قصص العباد، غني عن أحبة وعشاق، عن من يسبحون في بحور الحب ويكون الغرق سبيلهم للنجاة من شر الفراق، اسمعينا.. افهمينا.. علنا نفيق يوما ومن الحب وأفعاله نتخذ سبل النجاة.

تبدأ شهر نان الحكاية دون مقدمات أو نهاية، تفتح باب الرواية وتخبرنا بأن حكاية اليوم عن زهرة، هي مجرد زهرة عادية هكذا ترى نفسها، كانت زهرة أخرى من ضمن زهرات كُثر ملقاة على جانب، مهملة ووحيدة بهذا العالم، تشكو وتأن لأفرعها، مكتفية من هذي الدنيا بنظرة حب من شمس الصبح وضحكة مغازلة من قمر الليل ومعاكسة من إحدى النجمات.

لكن جاء هو محتل غادر ليستولي على بتلاتها ويحتل بصمت مسام وريقاتها، اشتم عطر ربيعها بمزاج فنان هاو، سحب نعومة الوريقات باحترافية بائع ماس، وقطعها جزيئات كتاجر ذهب متمرس، وعند بزوغ فجر جديد ألقاها.. رمى أشلاء ما بقى منها خارج حياته.

تركها تنوح ذاهلة لنسيم الصبح لمَ جاء وكلف خاطرة عناء الوصول لقلب مغلق بمتاريس قسوة وظلم حياة؟!، ولمَ تحمل شوكاتها وعالجها إذا كان ينوي منذ البدء فرارا أخر اكبر من دائرة نظراتها؟، لمَ ترك زهرته المختارة بعناية وفق شروط ومعايير ترضي من حوله وجاء لهذه المهملة منذ سنين؟!، ألا يكفيه ظلم الناس والدنيا لوريقاتها؟!، لمَ جاء إذا كانت خيباته هي دوما هداياه لإشراقه يومها؟، لمَ أطفئ بيديه وهج نعومتها وبراءة تسكن ريعان شبابها؟!.

تركها لتردد أقاويل معبرة عن عاشقة مهجورة، تبدي في نصائح ملتاعة لباقي الزهرات، لتلخص حكايتها في بضعة كلمات تحكيها بأن أسوء شيء كونك لا شيء لمن هو لك كل شيء، آه يا قلبي يا وطن مذبوح بيد القدر، مجروح ضائعة منه الروح قتل، بيد قاتله إذن وتصريح مفتوح، لكل أفعاله معه مبرر، خطوط الرفض له تجاوزها مسموح ومباحه، يا وطن الأمان، عليك مني السلام، فقد حانت لحظة الختام بوداع المحبوب.

..*

أخيراً توقفت السيارة، دخل زياد المبنىوأشار أحد الجنود إلى نايف أن يصعد معهم للأعلى، لم يجد بد، نظر نظرة سريعة لمَ حوله فلم يستطع رؤية شيء نظراً لرعبه وعدم قدرته على التميز لعدم تركيزه، كانت العمارة فخمة وفاخرة جداً لم يرى مثيل لها من قبل صعد معهم إلى إحدى الشقق، دخل دون أن ينبث بكلمة.. وأخيراً نطق زياد قائلاً: "وصلناستبقى هنا نايف حتى أعود إليكَ" ثم تركه ومضى..

نايف.. أهلاً بك في حيفا

تفاجأ بهذا الصوت الرنان، نظر لمصدره ليجد أن قائلته فتاة حسناء تبدو في العشرين من عمرها، ذات شعر أحمر وعيون زرقاء، ووجه كما لو أنه صنوع من لبن حليب، ثُبتَ على جسد شهي شديد الإغراء ترتدي ملابس تُظهر أكثر مما تخفي، تُثير شهوة جبل الدروز لا هو فحسب..

صحبته لحجرته وسألته: هل تريد شيء نايف (قالتها بدل زائد فقتلت فيه الوعي، ليثبت غير قادر على النطق لهول شعوره تجاهها)، تركته وخرجت وهي تتصنع للبراءة رغم إدراكها لمَ أحدثته داخلة من زلازل وبراكين، لكن بمجرد اختلائه بنفسه، شعر بحجم المأساة فبكى كطفل فقد أمه وسط ضجيج سوق المدينة، شعر أن أفكاره مشتته لا يدري ماذا فعل؟!، وما هو مقدم عليه!!، وما هي عواقبه؟.

ما أرعبه بعد ذلك أكثر وأثار أسوء مخاوفة أن زياد تركه لأكثر من أسبوع دون زيارة، فقط تركه مع فريق من أطباء نفسانيين يسألون ويفتشون وسط أحلامه، كلماته، وحتى خلجاته، لمعرفة نقاط ضعفه، وكيفية السيطرة التامة عليه.

ليحدث نفسه كالعادة.. ماذا يجري نايف؟؟!!

هل أتى عليك اليوم الذي أصبحت فيه خائن وببحر الغدر تنهار؟!، هل يتعبك فراق حبيبك وما أحدثه من دمار؟ هل ألمك لذا تلعب بالنار؟! هل أبكاك الجزيل فأزلتِ عن قلبك غبار حبه ووطنك؟! هل تملؤك أفعاله تلك الخالية من الحق وعارية؟!

هل حبيبك يراك كشبح ويبغ منك الابتعاد أو الانتحار؟! هل أمَلَكَ بحب بيومك كان عابر مار؟! هل أماتك يوم ذهب واختفى بشتاء حار؟! هل تحيى الآن بدعوات تحميك لرب جبار؟! هل لديك تساؤلات أم أنتهي مشوارك والحوار؟!

هل ستدور في فلكها بلا فرارا!! لمَ تستمر في غيك نايف، أتوجد فرصة سانحة للهرب؟! أم أنك غرست روحك وذاتك بمستنقع خيانتك هذه؟!، لكن كان يخلص في النهاية إلى انه بريئ مجني عليه والأخرون هم من ظلموه وجرون لهذا الفعل الجلل.

بعد أسبوع بدء مرحلة التدريب على فن التجسس، وتجميع الأخبار والتقاطها دون إثارة الريبة والشبهات، علموه كيفية تميز أنواع الأسلحة، كيفية الاختلاط وسط المحيطين به ووسط التجمعات الفلسطينية ليستطيع إتمام مهمته بنجاح، أجاد كل هذا سريعا فيبدو ان خلف بشاعة خلقته عقل يعمل عندما يريد.

دربوه على كيفية رصد تحركات تلك الفرق "الإرهابية" كما أسموها، وكيف يلاطفهم ويرتبط معهم بصداقات، وعلاقات علموه كيف ينشئها، وكيف يستغلها جيداً، وكيف يستدرج من يريده للأحاديث الوطنية، بحيث يتم إثارة حماسهم فيخرجون ما بداخلهم من أسرار، دون أن يدركوا أنه يستدرجهم لهذه الأحاديث.

تحول إلى شخص أخر واثق بذاته حد الغرور، تحول بدلاً من شحاذ إلى ملك بفضل تزكيتهم لأوهامه، تجولوا معه شوارع إسرائيل بسيارة فاخرة ذات ستائر سوداء كأحد مسئولي الدولة، ليقارن بين بلد الديمقراطية والفن والجمال والحرية وبين ما رآه وما يسمع عنه ببلاده العربية.

أقنعوه بأنه سبيل جاتهم من هؤلاء المتوحشون، أن ما يأتيهم به هو صمام أمان يضمن استمرار واحة الأمن والديمقراطية هذه.

أشبعوه متعه ودلال، منحوه ما يعوض حرمانه من المال والنساء، وذلك عندما نجح في استخدام اللاسلكي في الإرسال لأول مرة.

كما وعدته الين حمراء الشعر التي تُقيم معه في المنزل أنها ستقضي ليلتها معه مكافأة على نجاحه، ورغم علمه أنها عميلة للموساد إلا أنه لم يُبال فما همهُ سوى أنه سيقضي الليلة في أحضان أنثى جميلة لأول مرة، ليتذوق لهيب الحب، ويطعم من بركان عشق ودلال، أجادت دورها كاملاً حتى أنها وعدته أن تكون محظيته خلال زياراته لإسرائيل.

أحضر إليه زياد المزيد من الفتيات ليبيت معهن، كان يُدرك أنهن من داعرات الموساد، لكنه عشق إحساس الرجل المغوار، حاول أن يعوض حرمان سنين، أن ينتقم من ترك فاطمة ومن قبلها أبنه عمه، كان يرى في عشيقاته فاطمة وزليخه، لذا كان يغني لهن:

حبيبتي.. عشقي.. ارتعبي..

اعزفي أبهى ألحانك وأعذبها بأحضاني،

ضجي، قولي تعال..

اصرخي بشراييني،

بهمس ناديني وبسكون شغفك مزقيني،

عَنِفي قلبي، ألعني،

بالجنون اتهميني،

أثبتي لوجودك، وبنسيم عبيرك ضميني.

لا تتحجري كتمثال، وكشلال أُغمريني،

أضربي، بعثري أجزائي وبمجون أحبيني،

أحتاج لأعاصير ناثرة لبعيد شوقي وحنيني،

حرب وغارات شعواء عليَّ هيا بقسوة شني،

لا أهوى حياءك تمردي وبشهد هواكِ غطيني.

باحث عن حب وعشق يأسرني ويفوق أنيني،

عاشق متجول في دروب الدنيا وهدوئك يقتلني،

لذا حبيبتي..

اشهقي واصرخي مداوية لأنيني،

اقتربي بعشق كاسر لخداع أماني.

بعشقكِ أُقتليني.

..*

شهر نان أكملي السرد الليلة عن أحبة تفرقوا، وعن أحبه معذبون لا الحب القديم بقلوبهم مات ولا هناك متسع لحب جديد، احكي وزيدي فهذا الحب منه الكثير في الحياة، أخبرينا عن إحدى فتياتك واروي عما يعتمر قلبها فلعلنا نجد لها الحل اليقين.

هلت فتاة بإشراقه ضي فجر لاح، ورغم الحزن عينيها لامعه بضياء شمس الصباح، جلست بيننا ونظرت إلى من بهت لرؤيتها ثم تهللت أساريره بحب وانشراح، وسألها هل سؤالي نال منكِ الاهتمام يا فاتنة، وهل سأجد الإجابة مفرحة كهذا المساء، عبست مطرقة في الأرض ثم أجابت وبانبساط في الكلام، يا أنت سوف أجيبك من أنت لروحي وحياتي، أنت شخص يبهجني يسعد قلبي يناغش أحاسيس بفرح وهناء يسند روحي من استمرار سقوط وسط كآبة وحزن لا متناه.

أنت شبح لحبيب كنت أترجاه رجل تمنيت وجوده في حياتي في أحد الأيام، حب بخيال يملؤه شقاوة وبراءة الأطفال سكر وعسل يجمل لحياتي ملح يضبط لطعم حياتي المر ويزينها، أنت زمان جميل ضاع من زمني لا يناسبه ولا يمكنني دمجه بحياتي لفروق التوقيت وسوء الأحوال، ضحكة صافية ملأتني يوم دخلت حياتي لتلونها بسمة نور تمثل شمس تزيل آهاتي أشعة ضياء لقمر وهاج أزال ظلمة أوجاعي.

أنت وأنت ما زال الحديث عنك يفيض كبحر هائج ملئ بالخيرات ينتظر شارة فيض خيراته على شواطئ الحب لتنال حورياته نصيب مقدر من لؤلؤ ومرجان، لكن للأسف عابك شيء واحد أنك لم تنسيني حبيبي رغم ما به ورغم أنك هذا الإنسان

فهو حب وغرام وعشق أنتظره، هو عمر آت وأحلام وأمال عريضة أتمناها، آه منك حبيبي برغم رحيل الثقة ورغم ضياع الأمل ورغم افتقاد خيالات تجمع فيما بيننا، ورغم.. ورغم.. فأنا مازلت أنثاك المحبة العاشقة الذائبة في بحر هواك، المنتظرة لعودتك لتطفئ نيران فقد وحرمان بغياب متعمد من عينيك.

حبيبي أحلُم بدفء يديك حنان همساتك وكلمات غرام من شفتيك، مازلت هنا انتظر عودة قاتل روحي ليُنجيني من ظلمات بئر وحدة اغرق فيه بعد فراق دنياه وسماه، أنتظر من اخذ بثأر حسادي مني دون مودة أو حتى هوادة في قتلي، لم يسألني عن عذري أو يفسر لي ذنبي وبدون رحمه نفذ عملية قتلي بهدوء ونعومة حية ملساء رقطاء.

حبيبي أصبحت أنت الغول المتغلغل في قلبي وروحي، من حول الثلج في وجوده لدفئ يعمق ليالي وأيامي، حبيبي الغالي آه من أوهام وظنون بها عشنا، واقع معاش أردناه وتخيلنا سبل الحصول عليه، حبيبي نعشق ونحب ولكن.. من هنا ليساعدنا. يا بشر أتدرون من هو؟! أين يسكن؟! متى ذهب؟! وهل سيعود؟!

..*

غاب نايف خمس وعشرون يوماً، عاد في نوفمبر 1971 إلى لبنان، ليُخبره أحد جيرانه أن.. فاطمة زُفت ورحلت مع زوجها، غضب وثار، ما دخلي بالأمر؟ لمَ تُخبرني؟، استشاط غضبا حتى أنه كاد يضرب جاره، الذي لاذ بالفرار خوفا من نوبة غضب نايف.

ليكتشف أنه لازال مُدله في حبها، لم تنسيه حمراء الشعر الإسرائيلية ولا إخوتها الفاتنات مشاعره كما أعتقد، شعر بسكين غائر في أعماق قلبه، مما زاد سخطه على فاطمة ووالدها وبلاده أيضا، وقرر الانتقام..

قاتلتي الحبيبة.. كنتُ أرىٰ الحُبُّ ضَعْفْ !!العِشْقُ مَذَلّةً وَهَوانْ.. كُنْتُ أهْرَبُ مِنْهُما وَمِنْكْ!! فَوَقَعْتُ فِيْ أحْضَانَكْ.. وَشِرَاكِهِمَا خِلْسَـــةً!! اخترت التمرد يوما.. ولوأد حنين فؤادي إليك،! قررت وهبه للمساكين وعابري السبيل، ويا ويلي.. حبي لك.. غطى البرية.. ولا يزال! بقلبي وروحي الكثير لك.. والكثير.

أنتِ ليَّ.. حب وفناء.. بلا انتهاء، إلي من أستجير منكِ..!؟ وأنا أخشى عليكِ.. عقاب ربي العظيم!!

لكن ها هي الأيام مرت ونسى الفكرة فعمله الجديد كان أهم، فهو ما يمنحه الأمان بالأموال الكثيرة المُغدقة عليه، نظير خدماته الجليلة لإسرائيل.

قبل سفره كان قد أخبر أهله أنه ذاهب لبيروت ليقضى عطله لمدة شهر، يتقصى الأخبار حول البضائع هناك ومدى إمكانية إقناع أحد التجارة ليشاركه في افتتاح محل خاص ببضاعته هنا بالجنوب.

سهل عليه هذا الأمر إخبارهم عند عودته بأنه قد كسب بعض المال خلال إجازته في بيروت، لكنه لم يستطع إقناع أي تاجر بمشاركته، نظراً لتخوفهم من المتاجرة في منطقة الجنوب بسبب المناوشات الدائرة دوما بينهم وبين الإسرائيليين وتلك الغارات المستمرة عليهم.

ما أسعد والدته وإخوته أكثر أنه أخبرهم، أنه ينوي إعادة بناء المنزل، ريثما يجد عروساً تناسبه، عاد مرة أخرى إلى عمله في مكتب البريد..

شعر بغرابة كبيرة كيف يعود لهذه الدراجة المتهالكة، بعد أن رأى كل المُتع المتاحة في إسرائيل، متع يمكنه الحصول عليها، ليحدث نفسه يمكنني أن اشتري سيارة فاخرة الآن.. نعم.. سأشتري سيارة أتنقل بها، ولكن.. زياد أخبرني بتوخي الحذر سيتساءل الجميع كيف جمعت كل هذه الأموال في شهر واحد..

حسناً سأكتفي بدراجة جديدة، لكنه فكر يا الله.. ربما أثار هذا ريبة رجال المقاومة، لا يهم لنترك هذا الأمر الآن، المهم بحر الأموال الذي لن ينضب مائه أبدا..

بدء يجمع الأخبار والأسرار، تعلم كيف يحفظها جيداً، وفي الليل يستغل نوم الجميع ليبدأ في بث رسائله السرية في ميعاده المحدد:

"صادقت فلسطيني فدائي، دعاني لزيارته في مخيم عين الحلوة، للعلم المخيم به مركز عسكري للتدريب على استخدام السلاح والقنابل وصنعها. وبه ثلاثون شاباً مدربون، يحصلون على مكافآت ومواد غذائية وملبوسات، ويجهزون لعملية ضد مستعمرة "حانيتا، سأخبركم بميعاد العملية حلما أحصل عليه، هناك أيضاً عشر آخرين لازالوا تحت التدريب والتأهيل".

هكذا توالت رسائله إلى جهاز المخابرات الإسرائيلي الموساد تباعاً، وبغزاره فقد كان نشط في جمع كل ما يمكنه الحصول عليه، كي يضمن تدفق الأموال بغزارة إليه وعدم نضوبها أبدا.

يرسل رسائله ويذهب للنوم دون شعور بالذنب، لا يقلقه ضميره أبداً ثم يستيقظ في اليوم التالي ويخرج صباحاً حاملاً حقيبة البريد، كأنما هو شخص عادي لم يفعل شيء خاطئ، ولم يتسبب في قتل الكثيرين، يربط حقيبة بريده في مقود دراجته المتهالكة، يمر بها بين القرى الحدودية بأمان، فالدراجة هي جواز مروره الأمن ليستطيع التقاط الأخبار والتلصص دون إثارة ريبة أي شخص، يراقب تحركات الفدائيين وأعدادهم وعددهم، إمكانياتهم واستعداداتهم، ليبلغها مساءاً لقادته من رجال الموساد.

أرقه الوحيد كان.. سيطرة فاطمة على أحلامه حتى أنه حَلُمَ بها ليال عديدة، تأتيه باكية معتذرة تُسمعه أصفى وأنقى كلمات الحب، تطلب منه العودة إليها فستهرب معه ويتزوجا.. نايف..

حبيبي ..

أخبرني ما سبيل نسيانك

وكيف اعتادُ غيابك

أتدرى..

لأغفو تناغش قلبي بكفيك

تلمس شعري فتحتويني وأحتويك

أحلامي الوردية تفيق بهمساتك

وبهمس عطرك أهيم بواحاتك

يا حبي..

من نار حنقي أقسمُ بشر رهيب

والله لأذيقه وأسوى به كل ما هو عجيب

وتمضى أيام وليال بإحساس مرير

وأفقد نفسي وأظل لعيونك أسيره

وضعفت فبقلبي متجبر غرامك

يا مَّن أهوى وأعشق أريد هيامك

آآآه.. حبك جمر متقد ومستعر

عني بعيد وللقلب مستعمر

أرحم يا هواي عقلي وجنوني

فحبك يغتال أماني وسكوني

يا آدمي

أغثني من سطو شمسك على أيامي

ومن قمر أناجيه عله يخفف هيامي

أذهب عليَّ أفيق بمعاناة حرمانك

يا محتل أحلامي الساكنة بمكانك

أرحل وحبك دون عزاء

بحياتك شمعة مصيري فناء

وقبل الرحيل

أخبرني ما سبيل نسيانك

وكيف اعتاد غيابك

أُحبك نايف.

أوهامه كانت دوما سيدة الموقف فيما يخص فاطمة، تعايش معها في الخيال وكأنما هي معه فعليا، تناسى كل ما حدث، وأقتنع بفكرة أنه مجرد أن يُجمع ما يكفي، فيمكنه الذهاب إليها وجعلها تترك زوجها لأجله. ستهرب معه، بكامل إرادتها.

لذا كان يتخيلها أمامه، يحكي لها أحداث يومه كاملة، إلا تفاصيل خيانته وأنه جاسوس فهو لا يريدها أن تخاف منه أو تتركه، كانت فاطمة تغني له وتشاكسه بأنوثة، تسمعه أشهى الكلمات، فاطمة متغنجة تأتيه مُغنية:

الجنون فنون وأنا سيدي أم الفنــون،

بك فارسي أسيرة العيون فأنا بكَ مفتونة،

بغرام سحر جفونك صرت مجنونة،

كان قرار حبك القلب وحده عنه مسئول،

عقلي متغرب ووسط ظنون الخوف معزول،

الروح تناجي بظلام الليل دون خمول،

فالكل يلوم ويعاتب كأنني مجنونة مأفونة،

آه يا شفرة روحي الحالمة وبك متكسرة،

ترس الحياة الضابط لأيامي كلها الهائمة،

هيا نايف اصرخ بهم قل لهم: ابتعدوا

نايف.. حياتي صارت ببعدك مضطربة،

بغيابك باتت الروح مقهورة معيبة،

يا فراق ملآ الأرجاء برحيق الغيبوبــة،

سأترك عالمي وانصرف..

لأعود لمن تركته في يوم كنت به مغيبة،

نايف إذا تركتني وحيدة،

سأعيش الواقع بمرارته،

واترك كل ما أنا له مسحوبة مسحورة،

فربما استطعت العيش دونك ودون روحي..

في هذه الدنيا مأسورة مسجونة.

..*

شهر نان استحضري أرواح المحبين وهلم قصي علينا إحدى الحكايات، أو مارسي هوايتك في جمع الأصداف والمحار وأرسلي إلينا روح محبه، اجعليها تحكي ما مرت به في مغامرة الحب والهوى، ولتخبرنا ما نهاية ما عاشته ورأته في حكاية غرامها؟.

هَلَ رجل أبسط ما يقال عنه كوصف أنه عاقل ويبدو عليه الاتزان، ملامح شرقيه، أسمر القسمات، تسبقه رائحة المسك والعنبر، لكن تفضحه عيون معذبة حزينة اللمحات.

قال سأخبركم عن حبيب كان لي شريك حياة وأحلام، لكنه أتقن الخداع واللعب مستخدما سحر ودلال الكلمات، قتلني واغتال حبي باحتراف رمي الخُدعَ وألاعيب الهوى والغرام لغيري متسليا، ثم أتي مدعياً حبي، وأنني الوحيد الساكن في الروح والخيال.

ابتعدت، هجرت نعم، فلقد نالني التعب من اللهث خلف أوهام حب وعشق عنكبوتي القسمات، شبكة خانقة وكأنما صرت له عدو يبتغي منه الانتقام.

فيا من ادعيت الموت حبا، وأن قتلك كان بيد الحبيب والوسيلة فؤاق وهجر، قُلت غدر بقلبك المغرم صبابة، لم يراع فيك أي كرامة، أرسلك لعالم أشباح معذبة مكبلا بأصفاد الرفض والنكران.

اسمعني جيدا يا محترف البكاء، ما عاد الصبر يحتمل منك الكذب في كل حال وآن، أنت الغادر القاتل للاماني، نعم أنت من بدء بمد حبال الفراق وهجر وبعاد مليء بغدر ولؤم في كل الثكنات، والآن تلوم وتلقي الاتهامات؟، تقول فارقني، هجرني، عذبني، يا هذا لمَ لا تتحمل من أفعالك التبعات؟؟!

أنت، نعم أنت من جعلني أفر متشردا في البلاد، وأنت المسئول عن كل هذا الغياب، وعن اختفاء الفرحة من القلوب، وعن سلب بهجة الأعياد بالعيون، تعذيب روح وقلب المحبوب، وأنت وحدك السبب في عذابك الحالي وتفتيت قلب حبيبك.

لمَ لا تتقى الله فيما تفعل وتقول؟!، استهوتك الشكوى أم أنك عن عالم الحب مغيب؟!، أشُلت أحاسيسك وبترت مشاعرك وضاعت روحك وسط الظلام؟!، اخبر حبيبك المعذب عما تفعل، من هذا المسخ الماثل وليس فيه منك غير هيكل خارجي وسحر الكلمات؟!.

يا هذا معا مررنا بالكثير، مسافة كبيرة جمعتنا تتبعها مسافات وأوقات؛ ذاب خلالها القلب هياما بنبضات كلماتنا، وهدئ العقل بوجودك ولقبكَ حبيب، آه ثم آه منك ومن الحياة ذاك الكائن الغير مستقر الأحداث.

هل اتفقتما معا عليَّ لإجباري على فعل أمور خارج نطاق إرادتي ؟!، فأنت من جعلني اختار الابتعاد عنك وعن مجال عالمنا الساحر، لذا أرجو منك السماح فأنا لم أعُد احتمل العتاب ولا الملام، ولن أطلب العفو والغفران، فأنت يا شبح حبيب سبب هذه المأساة.

..*

تعلم نايف كيف يقترب من الجميع نساء ورجال، حتى الأطفال تعلم أن يُحضر لهم حلوى ويوزعها، وأثناء تبادل نكاته معهم يُجمع مزيداً من الأخبار، ألم يخبرونا قديما أن سر البيت مع أصغر من فيه..

كثف أيضاً من زياراته لمخيمات الفلسطينيين في الجنوب – "الرشيدية والبرج الشمالي والبص في صور، وعين الحلوة في صيدا"، لم يترك مكان يمكنه من اقتناص الأموال.. أقصد الأخبار.. إلا وذهب إليه يعس، لم يعد يردعه رادع أو يمنعه مانع، فها هي الأيام مرت دون أن يشك به أحد، مما زاد ثقته في قدرته على اجتياز أي شيء يريده، والحصول على ما يريده من معلومات.

حتى بعد أن لاحظ عن قرب، وبعينيه، مظاهر الحياة المعيشية الصعبة بالمخيمات، وكيف يعيشون على الكفاف داخل أعشاش من ورق وخشب، كيف يعانون من الزحام والبطالة والمرض، يعزلهم عن عالم الحياة، الأسوار والمآسي ورائحة موت ذويهم وأحبتهم فداء لوطن مسلوب.

لم يهتز جفنه لرؤية عيون بريئة قُتل ذويها، أو أخذوا ليرموا في غياهب سجون الاحتلال، لم يمنعه شيء عن ضخْ مزيداً من الأخبار وقتل مزيداً من الآباء، بل وتسليط الضوء على أماكن يمكن قصفها للانتقام والرد على ما يفعله بهم الفلسطينيين من سُكان المخيمات، تحجرت مشاعره كما حجر صوان.

بل هكذا نظلم الحجر الصوان فهو يمكن أن تنبت من خلاله زهور وورد جميلة يرويها ماء الأمطار، أما نايف ذاك الخائن فمن يروي قلبه الحالك الظلمة؟، فقلبه مات دون أن يُشيعه إنسان.

دُفن بأرض خربه، وسط قمامة شهوات متدنية، لم يعد يهمه غير الثراء وتجميع المال، أيا كان ثمن ذلك، وبمن يُضحى ليحصل عليه، لطخَ شرفه بتراب الأعداء، داس على كرامته بحذاء ذُل خيانة دون حياء.

باع نفسه للشيطان، مقابل بضعه ليرات، كما باع يهوذا عيسى بدراهم معدودة، لكنه شنق نفسه فهل سيفعلها نايف؟ لا أحد يعلم ما ستجلبه الأيام.

إمعانا في الخيانة كان يُشارك أحياناً في محاول إنقاذ المصابين، دفن من استشهد جراء القصف الإسرائيلي الغاشم على المخيمات، يمنح القليل من الأموال متعللاً بضعف إمكانياته وإلا كان منح المقاومة وأُسر الشهداء أكثر، لتلميع صورته ليكون مقرباً من مصدر معلوماته وأخباره، واستمر في بث رسائلة.

ثلاثة يستعدون للتسلل عبر المنطقة الشرقية، قبل الفجر بساعة، وستكون العملية تفجيرية.

هناك لنش مطاطي يستعد للإبحار به أربعة، فلسطينيان ولبناني وأردني، الهدف غير معلن بعد التوقيت فجراً.

قبضوا على سعدون في قلعة الشقيف لازال رهن التحقيق.

..*

شهر نان غني لنا عن الحب والصفاء، عن مناوشات بين الأحبة فقد تعبنا من قصص الفراق، غني عن حب خيال يداعب الأكوان خلف حدود عالمنا المعاق بأفكاره، اخبرينا عن أغنيه بها عاشقة لحبيب تراه جمال لا آلم يتعبها، وخبرينا عن وفاق موجود بين العشاق.

لتتحدث فتاة قائلة: ستُخبركم شهر نان يا رفاق عن قصتي أنا وقصة حبيبي الملاك، آه منه يا منى القلب لك مني سلام وتحيه، أقدمها لصباحك ومساءك نجوم درية، أفرشها بسمائك لتنير السحب بوردات صيفية.

بقبلات يدي أزيل خريف أحزانك، وببسماتي أمحو شتاء أوجاعك، وبقفشاتي أزين ربيع عمرك الباهي، وبغمزاتي أثير ضحكاتك الشهية.

لتطلق نظرات عينيك بنصف براءة تداعبني، وبلمسات حانية تلاعب شعراتي المخفية وراء أُذني، وبصوت حنون تسمعني أشجى قصائدك النزارية، تهدهد لخيالي وتحنو على كلماتي، لتكبر وتترعرع قصائد حبي فيك رومانية النغمات.

يا عزة نفسي..أفديك بخيالي المتكون بوجودك في حياتي، الضائع من غيرك أنت يا أغلى ما لدي، أموت ولا أرى يوم صوتك الشاكي، أموت ولا ألمس نظراتك التائهة في هذي الدنيا.

أبيعك فرحي وهنائي والثمن غالى باهظ هو حفنة من تراب رجليك، نظرة رضا عن حالك وحال كل ما تراه يا ضياء عينيا، يا بسمه روحي وربيع عمري، يا تعويض القدر لكل أيامي وليالي.

يا ساحر التكوين، أعشقك براءة عمر، صفاء روح ونقاء قلب، تملئ براحة بال وجمال عينيا، معك أعيش داخل شعاب أحلامي أميرة، وبين دفات مركبنا الساحر أرى ما أفتقده بواقعي متجسد رؤية عين.

معك تتحول مناماتي لأغنية من حورية أحلام، تمنحني صحبتك عصا وكرة بلور لأحقق غاياتي، وبين يديك أتعلم تمتمت تعاويذ سحرية تُنَقلَني معك بين مجرات الأحلام.

لنشكل أوبرا تروي عن عالم أحلامنا وأمالنا وما نطمح له، ونصمم رقصات باليه تسرقنا ببراءة خيال حركاتها، وعلى مسرح الحياة نعلم بنو آدم هؤلاء البشر العنيدين معنى أسمى للحب.

حب الخير ومساعدة الغير دون هدف يبرز كتشوه قصر بطراز عباسي المعمار بخشب يتنفس سريالية.

..*

عشرات الرسائل بثها نايف المصطفى إلى الموساد، مما أفشل العديد من عمليات الفدائيين سواء بالقبض عليهم، أو بقتلهم عند محاولة اجتياز الحدود.

كانت زياراته متتالية للمدن اللبنانية خاصة مدن الجنوب، وفي إحدى زياراته لمدينة صيدا، في سبتمبر 1972، تقابل في طريق البوليفار القريب من البحر مباشرة، بفتاه عرجاء تتسول.

لمح فيها جمال هادئ جذبة إليها، تخيلها تناديه بنظراتها، متغنجة تشير بدلال لتثيره، حتى أنه في لمحة عين تخيلها مرتدية فستان أحمر عاري الصدر والأكتاف يُظهر ساقين كلوح بنور، يُظهر قسمات جسد ناري، أثارة وزاد إثارته ما تخيلها تسمعه إياه بصوت مبحوح وهي تدور حوله بهدوء وخمول مقصود..

يا أنت.. أراك وسيم تتبغدد، على قلبي تتآمر بتودد، وعلى حسنك يا رجل تتمرد، وتظهر جفاء خداع متجرد، معجبة بك.. أحبك فلا تستدعي عدائي، أعجبك أعلم فلا تخدع لذكائي..

استغل دهائي لأني أرغبك وأتمناك، حتى أني استبدلت دوائي بهواك، لا تلقي كلمات جارحة، وتشير إشارات ذابحة، فحبك فعلا قد سيطر، والشوق بقلبي قد سُطر، تعال بسواك أبدا لن أقبل، هيا لا تتأخر هلم أقبل.. ومن أنهاري تعال لتنهل..

تحيطني أشياء هوجاء كلها صفات سوداء، وفي حبك صرت أسيرة مشاعر بيضاء، تأخذني من دنيا البشر غير الأسوياء، لتزرعني وردة بجنة حبك بكل صفاء، تسقيني عطرك لأظهر للعالم زهرة حمراء، تنير الدنيا بجمال صافي ينير الكون ببهاء، ويغير العشاق من حب شهي الأفعال دون حياء.

تشجع بظنونه هذه واقترب.. أعطاها بضعه ليرات، ثم سألها: هل أنتِ فلسطينية؟

نعم..

لمَ تتسولين هكذا تبدين صغيرة السن أين أباكِ؟ ولمَ تعرجين؟

أجابته: نعم أنا في الرابعة عشر من عمري، وأبي فقد بصره وإحدى يديه في انفجار عبوة ناسفة، وأعرجُ لأنني كُنت معه وسقطت سقطة مريعه على الأرض أثرت على ساقي.

ماذا هل حاولتما الاقتراب من مكان الفدائيين؟

لا سيدي بل كان يعدها، هو كان في فريق المقاومة، ولي شقيق تطوع في صفوف المقاومة اختفت أخباره منذ سنه، نُقيم بمخيم عين الحلوة ونشارك الفدائيين الحياة ذاتها.

إذن أنتِ من تعول عائلتها، شيء جميل، أنا أيضا أعول عائلتي بعد وفاة والدي.

هي الحياة سيدي، والحمد لله تبدو ميسور الحال، هنيئاً لك.

لمَ لا يتكفل زملاء أبيكِ بإعالتكم؟

نحن من رفضنا نستطيع التعامل مع الحياة وإعاله أنفسنا، لديهم من هو أهم منا.

حسناً إذن، ماذا لو أعطيتك هذه الأموال كلها خمسون ليره؟

أجابته بحيرة: ولمَ هذا؟

أشار إلى جسدها، ونظر إليها نظرة ذئب جائع، حاول هذا البائس أن يراودها عن نفسها، فما كان منها إلا أن نظرت إليه شذرا بغضب بركان على وشك الانفجار، رفضت وهمت بالانصراف، ليرتكب أكبر حماقاته..

استهان بكل ما قصته عليه عن والدها وأخيها، وبرفضها بيع جسدها، اعتقدها مثله يمكن أن تبيع الدنيا نظير أموال أكثر قد يعرضها عليها، لم يراعي حتى عرجها ليُدرك أنه بسبب من يُساعدهم ويمدهم بالأخبار... ناداها.. انتظري

..*

شهرنان قصتي ليست مع الحبيب، هي مع صديق كان لي الحياة، امنحيني قليل من وقتك لأرسل إليه رسالتي..

شهرنان: تفضلي..

الصديقة: أهلا يا من كنت صديقي بدوني أمرتاح وسعيد لحالك، تصول وتجول بالأرجاء لتشكو سوء صنيعي لجميلك، تنعتني بأسوأ صفة وبأني شيطان هالك قد نالك.

قدمت لك حبا وجمالا دون مصلحة وأهديتني رصاصات الخسة وشرارة، أعترف بجميل صنيعك واذكره فترسل بحقارة قيل وقال وقلوب غدارة، أراك كبيرا مسئولا فتصدمني بصغير أفعالك فرحا بالناس المبهورة.

يشيب الرأس لتطاير نيران الغدر من عينيك رغم صفائها وبرائتها، يتفتت القلب لنسائر فزعا من روح عشقت الخبث، دنوت بهدوء وذكاء لتقلب حياتي دون رجوع للدين وحيائه.

يوما قرب أو بعد ستذكُرني، ستعلم أني لم أكن بحياتك يوما غدار رغم خياناتك، وتدرك أني جاهدا حاولت مساعدتك لترقى بأفكارك وملكاتك..

حاولت معكَ لتجد الصفاء والجمال والحب بنقاء في الحياة، حاولت نجدتك من خوف سيطر على قلبك وروحك بضياع كل ما هو جميل وراق بهذه الدنيا..

عش الحياة، إنسى وجودي، ويوما ما ستذكر أيامي قد تندم لضياع قلب أحبك وأخاك رغم تعيبك وإهاناتك، أو قد تكمل كما أنت معتاد حياتك وسط شكوك من بشر وحياة، جرحت القلب فآه بمقدار كسرة قلبي وبحجم حرقة روحي، آه بوزن ما ضاع من عقلي فداء صداقة بالية، آه ثم اه منك صديقي.

..*

الفصل الرابع : مبادلة خاسرة

نايف: انتظري خذي هذه(قدم لها مائة ليرة)، أخبريني أسماء الفدائيين في مخيمك "عين الحلوة"، عَلي أعرف أحدهم وأذهب إليه لتقديم بعض المساعدة، وكانت هذه غلطته المدمرة والقاتلة!!..

لمَ الاسماء؟!، يمكنك الذهاب وحدك، ثم أية مساعدة تقصد؟!

نايف: مجرد فضول، أنا تاجر ويمكنني إفادتهم، هيا أخبريني ولكِ عندي مكافأة كبيرة، عندما اتفق معهم..

ذهلت الفتاة وشعرت بالريبة وأنها تحادث شخص به شيء خاطئ، قد يكون خائن، يريد شرائها برخيص الأثمان لتبيع ما هو غالي وثمين، فزعت لكنها تصنعت الهدوء والتفكير.

الفتاة: أأأ.. تقصد أأأ وانتهزت الفرصة لتتلفت يمين ويسار ممسكة برأسها وكأنما هي تتذكر، حتى لمحت سيارة عسكرية تقترب، فصرخت بكل قوتها:

جاسوس، جاسوس..

فزع نايف وانطلق كصاروخ أرض جو، تخلت عنه شجاعته وجرأته المزيفان وتملكه رعب قاتل، فاستمر في العدو، جُل ما يُفكر فيه، هذه حياتك نايف فأنجو بها..

..*

شهر نان يا غنوه بين كل الروايات، يا قصة حلوة تتغني بها الفتيات والأولاد، تعالى وأحكي عنا، غني أغنيتي الساكنة فيا، عشقت وآه من وجع خطواته على قلبي الساهر المتيم للغريب،

حبيبي ذوبني وتركني أعاني سهر ليلي وسهادي آه يا ليل، بعاده وصده أوجع قلبي، يا عمر ضاع في ثانية يوم وجدت حبك ساكن داخلي، قلبي فدائه يغني مواويل تهدم جبال ولكنها لا تستطيع أحضاره بقربي.

أه يا ليلي.. يا شهر نان قلبي عاشق لحب وقسوة بقرب الحبيب، حبيبي جنني وعندما طلبت منه الحنان قائلة يا طب عيوني ضمني لأنفاسك داويني بعطر روحك يا كلي أنا، قال لي: أنا عنيد وقلبي صعب الامساك، حبي أنتِ

وأنا هنا أعيش ملك في البعاد، شهر نان غني حكايتي وأعلني إذا فشلتي في ارجاعه أن عشقه يورث قلبي إرهاق خانق لعمري.

أخبريه الحب حنان، بأنه ليس بعذاب، قُولي له حبيبي هو وحبيبته أنا إذن لمَ البعاد وعذاب وفرقة لالزوم لها إلا عناد ليس له دواء، أعلميه أنه بسبب بعادة سأتركه وقلبي لنبدأ من جديد.

أخبريه أني من رحم أيامي سأولد من جديد، من بين أشياء مؤرقة معه سأكون هنا من جديد، سأبدع وانطلق وأعيش، سأكون أنا لن أموت ولن أقيد بأغلال حبه من جديد.

سأبدأ بنقاء لأفرح قلبي، أين سأذهب؟ ولأين سأصل؟ لا يهم، من جرحني ومن أتعبني؟ من خنقني ومن تركني؟ من سلبني حق الحياة وقتلني؟ لا يهم، كل شيء أنتهي ذهب بعيدا جدا عن مجال أفكاري وحياتي، لا يهمني ولم يعد يفرق معي.

قررت أن أسلك درب نسيان حبيبي وأن أحب من جديد، أفرح وأُدخل قلبي قصة حب بشروط تخصني أنا، وفق أحكامي وقواعدي المنظمة، وكأني فرعون لمصر أحب بأمري وبإشارتي يا شهر نان، سأختار من أنصبة على قلبي سلطان الغرام.

سأخبره.. أنه هو سيد.. الأحداث بحياتي، سيد الأيام، سيد قلبي الغالي الحبيب، وبأنه سيد زماني الحبيب.

سأترك حب يعشق البعاد كما يريد، لقد مللت السعي الحثيث خلف حب يهوى الفراق، شهر نان.. أعلني للدنيا أني من رحم أيامي سأولد بحب جديد.

..*

أثناء هربه وجد أنقاض مسرح قديم، فدخل إليه مسرعاً وأختبئ بمكان ناء بعيداً عن الباب، بعد أن تملكه التعب، وأفقده التوتر القدرة على التحكم بثبات حركاته، استغرب المكان فهو رغم عشقه للسينما والتمثيل لم يدخل قاعة مسرح من قبل، لم يحاول حتى فعل هذا والآن هو مختبئ بين أنقاض مسرح.

أمعن النظر كي يحاول تجميع صورة لمَ حوله في ظل ظلام يلف أرجاء المكان، أخرج داحته صحيح هو لا يدخن لكنه يحب الاحتفاظ بها وبعلبه السجائر تحسباً لأي ظرف قد يمر به، خاصة أنه يستخدمها أحيانا للتقرب لأحد الأشخاص لاستقاء معلومات عن الفدائيين الفلسطينيين.

سمع وقع أقدام بالخارج فأطفأ قدحة السجائر، وجمد في مكانه، ثبُتَ وتجمد كميت، كان يسمع دقات قلبه كما لو كانت دقات طبول أفريقية يوم عرس الزعيم، حدث نفسه..

آه يا زياد أين أنت الآن لتنقذني، لكن كلا لا أريده أن يعلم فيطردني من جنتي ونعيمي المستمر، لن أخبره أني قد مررت بهذه التجربة، سأذهب إلى البيت وأدعي المرض كي يكون هناك مبرراً لاختفائي أسبوع على الأقل، ثم أعود لعملي وأتحجج بأي مبرر لأسافر خارج لبنان كلها، يمكنني السفر إلى تركيا، أختفي شهر وسط ملذاتها، عندما أعود ستكون الأوضاع قد هدأت ومر الأمر بسلام..

نعم.. نعم هذا هو التفكير الصائب، يا الله ماذا سأفعل إذا انكشف أمري وقبض علي؟!!، لن أسمح بحدوث هذا، فستكون فضيحة بكل الأحوال..

ما هذا السكون القاتل؟!، حدث نفسه بالكثير خلال فترة اختبائه، حتى مرت ثلاث ساعات وهو ثابت لا يتحرك من مكانه، نظر حوله للمرة الالف ثم تسمع جيداً فلم يسمع أي شيء سوى صوت أنفاسه المتلاحقة..

حسناً تبدو الأجواء بالخارج الآن هادئة، بالتأكيد فقدوا الأمل في العثور عليَّ، كانت فكرة الاختباء هنا فكرة عبقرية، آه يا ولد يا لك من فنان، أنت أستاذ الاختفاء والدهاء..

سأُخبر زياد بالأمر وأطلب زيادة أجري نظير المخاطر التي أتعرض لها، وسأحمله تكاليف سفري إلى تركيا للاستجمام كتعويض عما مررت به.

شعر بالطمأنينة أخيراً وهدأت معاول دقات قلبه، خرج متسحباً وكأن شيئاً لم يكن، كي ينطلق إلى منزلة يلتمس بعض الأمان في حجرته وعلى سريره تحديداً، أو حتى ليختبأ قليلاً ويتوارى عن الأنظار في أي مكان أخر، كي يُفكر بهدوء فيما يُمكنه فعله مستقبلاً، فلا يجب أن يعرض نفسه لهذا الموقف ثانية.

سار متلفتاً يمينة ويساراً كما لص قاتل، حتى وصل إلى المنطقة الواقعة بين شركة الداتسون والتيرو بطريق صيدا القديم، ليسمع صوت يرعد فجأة، ها هو اقبضوا عليه، لم يتخيل أنهم أدركوا بحسهم العسكري أنه بالتأكيد لم يخرج من المنطقة، وأنه اختفى في أحد الأماكن القريبة، لذا داروا بسيارتهم في حلقات حول المنطقة انتظاراً لخروجه أو ظهوره من مكمنه.

أنقض عليه رجلان وكبلاه، فيما انهال عليه آخران ركلاً وضرباً، يا خائن.. يا لص.. وهو يحاول أن يدافع عن نفسه ليتقي شر ضرباتهما الموجعة، صارخاً من أنتما؟ لا أعرف لمَ تفعلون بي هذا؟ أنا رجل بريء لم أفعل شيء!!..

بالله عليكم أتركوني لشأني.. أنا موظف بريد مسكين لا دخل لي بهلوسات تلك الفتاة، إنها مجنونه تنتقم مني لأنني رفضت أن ادفع لها المبلغ الذي طلبته لتبيت معي الليلة، كان ينظر شذرا أثناء كل هذا إلى الفتاة وكأنما يتوعدها بشر قتله فهي من قلبت حياته رأساً على عقب، لمَ لم تأخذ الأموال وتسلمه نفسها وقليلاً من المعلومات؟!! فتاة غبية!!..

لم يتركوا له المجال للفرار، دفعوا به إلى السيارة الجيب، ليشاهد عن قرب الفتاة تجلس مزهوة فرحة بما فعلت، واثقة تنظر إليه بشموخ فلقد أبلغت عن خائن.

أخذوه إلى معسكر خاص بهم فلسطيني بطريق "دير قانون البحر"، وبتفتيشه وجدوا بين طيات ملابسه رسوم كروكية بخيط اليد لمواقع فلسطينية في مثلث الراهبات، وشارع رياض الصلح، ورسوم أخرى لأهم المفارق الحيوية بصيدا، وبعض رسومات لمناطق الأحراش على الحدود بعلامات بارزة على بعض المناطق.

تركوه ملقى بإحدى الحجرات الضيقة على الأرض، كانت الرائحة نتنة ظل هكذا يومان، ليراقبوه من إحدى الفتحات المخفية بالحائط، في محاولة لاكتشاف شخصيته وتركيبة نفسيته، والتي كانت في أسوء حالاتها.

كان مع كل دقة محيطة يتوقع الموت، وعندما يُفتح باب الحجرة يتوقع الضرب، كم كان يبلغ رعبه مداه عند إدخال طبق الخبز الجاف وكوب الماء، فقد كان يتوقع خلطهم السم بالطعام ليقتلوه دون تعب،

يبكي ويبكي ليشعر بمدى ضعفه، لم يعد يدري ماذا سيحدث فكل ما يُفكر فيه هو موته بمختلف الأشكال والألوان.

تذكر والدته وإخوته كم يعانون الآن، يا الله ماذا فعل لقد وضع رأس والده المتوفى منذ سنوات في التراب، كيف يتعامل أهله مع الجيران؟ كيف يعيشون الآن يا تُرى؟ لقد جلبت لهم العار..

كم تمنى لو صدقت كلمات زياد ووعوده بإنقاذه إذا حدث مكروه، أين هو الآن؟ هل سيحاول إنقاذه كما وعده؟!!.

ليُطمئن نفسه ويحثُها على التماسك، قائلا لن أسمح لهم بإثبات شيء عليَّ، لن اسلم لهم رقبتي.. سأماطل حتى يأتي زياد ويخرجني من هنا، لن أدعهم يقضون عليَّ فأنا الأذكى وسأخرج من هذه الأزمة سالماً.

لتعود ذكرى فاطمة تطوف بخياله من جديد، يا ترى هل تذكرني؟ ماذا تقول عني الآن؟!

هل أدركت أنها سبب كل ما أمر به؟

آه فاطمتي..

أنتِ الحياة أم موت أنجلى، حبك جنتي وناري في العلى، بين أحضان خيالك سفري وترحالي، وقلبك أشتهي ليكون بيتي العالي، يا سري الحبيب ومالكة لأحلامي، أمن يسكنني في صحوتي ومنامي، اسمكِ لا يزال دواء روحي وطهر غنائي، وستظلين حُلم أثير..

لكي مني حبي ووفائي، سيمر الزمان وسنظل أحبه بخفاء، لأنك استبحتِ دماء هوايا بالجفاء، وفارقتني.

..*

شهرنان.. صوت صاخب منادى.. ثم تندفع صبية مليحة لتعترف.. مندملة روحي على حب تشعب في ثنايا خلاياي كقطرات مطر ندى يسقي الأرض العطشى منذ قرون، حب الواقع وتشابك خيال وأحلام في دنيا الأه..

عشق حياة وصمود وخطوط حماية وأمان من تيه الأوهام، حب لرجل الحكايات الفارهة بسمته، الناقل لعدوى الحب بتفاؤل رغم أهات الأيام، حرارة حب ودفئ قلب يغطي أنثاه برموش العين الناعسة، ويضم الروح بكف ما بين ليونة حب وقسوة حياة عجن لتثير اللمسات هيام وجد وغرام متناه.

حب يخبئ قصص وروايات أعاجيب عالم خفي سمائه قناديل حب ونجوم بسماته أمطار زخات ماس ولؤلؤ فواح لعطور غرام، سحاباته صافية زاهية مزينه بالنرجس وقليل من قرنفل ينعش للقلب الملتاع، غيماته باشره تنذر بتصالح أحبه وهيام يغطي الأجواء بمرح وغناء، بحر موج بزبد العسل ومائة قطر لورد جوري مشهي اخذ بمتعته للأنفاس، عالم بحيراته فل وياسمين مقطر، حتى أرضه ناعمة بها شجر البلوط بيوت غناء تتزين بحبال نسيم منعش مرطب بذرات ذهب وفضه فيحاء.

عالم خيال صاف يحوي من البشر الأنقى والأصفى والأكثر حبا لأحبته ولغيره من بشر الدنيا، عالم بشره يعيشون بمدينه فضلى من وحي خيال العشاق.

طاقتها حب ونيرانها مشاعر وأحاسيس متبادلة، بشر يسقون العالم اجمع الأمل في غد أفضل ومستقبل أنقى يحكمه شرائع ودساتير ربانية لا تشوبها دسائس ومكائد بنو الإنسان، لا مصالح ولا أهداف مخفيه الهدف الأسمى هو رفعت وعلو الشأن.

قضيته خير الإنسان وحقه في عالم صنع من وحي خيال العشاق أحبه وحياة قبل الموت الأكبر ليعيشوا حياة أخرى أجمل مما يوفيه الوصف في جنات عدن، ورضوان الحنان المنان الله.

..*

احضروا نايف في اليوم الثالث، وتُرك في حجرة صغيرة لثلاث ساعات دون أن يحاول أي شخص الاقتراب أو الحديث إليه.

أربكه هذا كثيراً وأثار أعصابه بشدة، لكنه طمأن نفسه أنهم يفعلون ذلك لأنهم لا يجدون ما يدينه، كان مقتنعاً كلياً بأنه سيخرج من هذا الأمر سالماً، وسيطالب برد شرف عما لحقه منهم من إهانة بهذا الاتهام الشنيع، ما كان يصبره أن لا أحد من ذويه قد جاء لزيارته مما يعني أنهم لم ينشروا الخبر، ولن يعرف أهله وجيرانه أنه مسجون بتهمه الجاسوسية.

لا يعلمون من يتعاملون معه، سيجعلهم يندمون على فعلتهم هذه.. لكنه لا يعلم لمَ معدته تصرخ هكذا ويشعر بضعف أنفاسه وكأنما سيُخنقه شبح مجهول.

كانت الغرفة لا تحتوي سوى على طاولة مربعة الشكل وكرسيان من الخشب شديدي التهالك، ولا توجد نوافذ فقط الباب هو مدخل الغرفة الوحيد، ينيرها مصباح واحد كبير ذا وهج شديد الحمرة، يثير رعبه، فجأة فُتح الباب بعنف شديد ليدخل اثنان يبدوان شديدي الغلظة يرتدوا ملابس المقاومة المميزة، يخفوا وجوههما مما يجعلهما بالنسبة له شديدي الرعب، لكنه ظل يدعي التماسك، فهو لن يترك المجال لأي هفوة أو خطأ يحدث فيقضي على حياته، بدءوا التحقيق معه، وحاول قدر استطاعته أن يناور ويتغابى، ليهرب من العقاب.

ظل أسبوع يناور ويهرب ويتغابى، في كل مرة يتركانه ويودعانه محبسه دون نتيجة مرجوة من التحقيق، دون أن يحاولا حتى تعذيبه، فقد أدركا جيداً، أنه سيعترف بكل شيء بقليل من الصبر دون عنف، يدركا مدى جبنه وتصنعه الشجاعة، تعذيبه هو تركه مع نفسه دون صب نيران غضبهما عليه بإيذاء جسدي.

يكفيه أصوات المعذبين بالغرف المجاورة له، أصوات ساجنيه الصارخة بين حين وأخر في زملاء المحبس بالجوار، وجبته العفنة منتصف اليوم وتلك الرشفات القليلة التي يدفعونها إليه دفعا.

شعر أنهم يريدون قتلة جوعا، ونكايةً بهم التهم ما قدموه فلن يموت الآن، لازالت أمامه الحياة طويلة يريد الاستمتاع بها، سيخرج وسيقضى يوم مولده القادم في فينا ليعوض ما يمر به الآن.

مر يومان وبدء يشعر بالتعب لكنه تماسك، ما يؤرقه تلك الكوابيس المرعبة، حيث يشاهد نفسه مسحولاً على الأرض يتمزق جلدة ويُسلخ، يرميه الصبية بالطوب والحجارة، مهللين الموت للخائن العميل.

اذبحوه.. احرقوه، ليستيقظ فزعاً في اللحظة التي يوقفونه مصوبين فوهات مسدساتهم نحوه.

اليوم العاشر لم يمر عليه إلا وهو منهار نفسياً وعصبياً، أتت النهاية أسرع مما كان يتمنى، أعصابه المتوترة لم تحتمل تلك الخبطات المُهددة، ولا تلك النظرات المتوعدة، ولا هذه الكوابيس المستمرة، وأعترف بعمالته للموساد، وأرشد عن الجهاز اللاسلكي الذي يَبِثُ منه رسائله.

ذهبوا لمنزلة ليقلبوه رأساً على عقب حتى عثروا على جهاز اللاسلكي بقاع سحري بدولاب ملابسه، ومعه أربعة آلاف دولار، وستة عشر ألف ليرة لبنانية، كان هذا مجموع ما أدخر من ثمن خيانته وتجسسه لمدة عام، بالإضافة لصندوق صغير يحتوي مجموعة من الرسائل مكتوب على ظهر المظروف الذي يضمها "فاطمة" أمسك أحدهم بعدة خطابات منها ليراها وفتحها وقرء سريعاً ما كتبه نايف والتي كانت كلها عتاب لحبيبته فاطمة..

..*

فاتنتي فاطمة..

أرسل لكِ قبلات وقبلات تعوض حرماني

أتمنى رؤيتكِ غاليتي فهل بجواركِ تفتقديني؟، أنا.. أفتقد سماعك لحكاياتي، حبك لرواياتي وكتاباتي، تشجيعك لخيالي وظنوني، خوفك من عقلي وجنوني كلما جئت أمام مدرستك، حبك لانطلاقاتي ومغامراتي للقائك، أتذكرين وتسألين عن رواياتي وما كنت اسرده إليكِ في خطاباتي؟!..

أتتنفسين بألم عندما تذكريني؟!، أتتنهدين مبتسمة لذكريات عني؟!، أتتمنين ليلي ونهاري ورجوعي؟!، أتشعرين بقليل من الندم لضياعي؟!، أفتقدك بجواري!، فهل تفتقدين وجودي!؟

أنتِ فاطمتي يا عاشقة لفراقي بغباء، أرجوكِ أقتربِ أحبك يا قدري بوفاء، لا خوف وحيرة قربكِ مبتغى دون حياء، عودي وأنسي الدنيا والوجود فأنا الهناء، لا يهمني الناس والأصحاب ولا الأخلاء، أنتِ سمائي ونهاري

وليلي أفهميني بجلاء، أنا بالأرض هنا أريدك فلا تقُولي حبي بالسماء، أهواكِ بجنون فاستوعبي لست بالأصم الأخرس.

أناديكِ وأعشقكِ بهمسات حبيسة أتسمعين النداء، سأحارب النسمات والبحار وحتى طواحين الهواء، يا تاج رأسي يا أمان وحنان بعمري أبتغيك احتواء، ما يفرق غيرك يا عمري فبعدك عن أحضاني العناء، أنتِ روحي بجسد يهوى فراقي يا أغلى الأسماء، يا عاشقة لفراقي عودي لحياتي لأُنسيك هذا الهراء.

مجنونك/ نايف

..*

فاتنتي فاطمة..

حبيبتي أما زلت حبيبتي؟ يا سر آهاتي، أين أنت من كلماتي؟، أين شوقك لمحادثتي؟، أين بحثك عن سعادتي؟، أين لهفتكِ للقائي ورؤيتي؟، أين غرامك لغنائي وبسمتي؟، أين حبك لليلي ودنيتي؟، أين..هل مات ما بيننا؟!.

هل افترقت طرقنا؟!، هل تبعثرت أمانينا؟!، هل ضاع ما كان فينا؟!، هل.. هل؟.. من اجتاح؟!.. من استباح؟!.. من استراح؟!.. من نالته الجراح؟!.. من ذهب وراح؟!.. من.. من؟ حبيبتي أما زلت حبيبتي ؟؟؟ لمَ أنتِ هناك؟!.. ولمَ أنا هنا؟!.. أنتظر الإجابة .. فهل ستجيبينني؟!.

..*

فاتنتي فاطمة..

يا عاشقة الفراق، كل عام وأنتِ، بخير وصحة، والعافية تعتنقك اعتناق، كل عام وأنتِ إلى الله أقرب، ومحببة لكل الرفاق، كل عام وأنتِ في تقدم، وموفقة بكل الأفاق، كل عام وأنتِ أنتِ، وأحلامكِ واقع لا خيال، وبوفاق.

الآن أخبريني عاشقة الفراق، لمَ دائما وأبدا هديتك لعيد الحب فراق؟، نعم.. فراق وفراق ثم فراق يغطيه فراق، فهل اختزلت جميع الهدايا في هيكل فراق!؟ أم بَخِلْتِ عليَّ بحُبك في هذا اليوم فأبرقت هديتي، فراق؟!

أتظنين مفارقتي، أنكِ ستنالين هيبة أكبر بمنحي يوم مميز مع الفراق!، أعتقد أنك تريني أعلى هامة منكِ.. وتخشين مني احتراق.. أتخافين مكانتي.. ومن حبي الاختراق، لذا قررتِ.. نثر الأرض حولي فراق..

يا أنتِ .. ما زلتِ مبتَدِئة في عالم العشاق، أِعلمِ أن لا درب للمحبين.. في عالم الفراق، ومهما حدث، ستعودين، ويظل قلبك أسير ومشتاق، سأظل ملجأ وملاذ تأخذكِ له، الأقدار بكل اشتياق، فأنا البيت الأمن، تحملكِ إليه كل سبل، الفرار والفراق.

..*

فاتنتي فاطمة..

سيدتي الحبيبة ومعذبتي..

ماذا أكتب عنك وبالقلب شرخ كالبحر منك أنت غاليتي؟، ولمن أبوح بسري وأنت سر حياتي وماضيا ومستقبلي الأتي؟، كيف أغني وأترنم حبا فيك؟ بل كيف أشدو في كبرياء وشموخ عنك؟، أخبريني كيف أترنح غراما وعشقا وهواً بك سيدتي؟.

قد كسرتي بي الروح وبيدك اغتلت بي النفس والأمل، يا حبا قتلني بدلاً من إحيائي وإروائي..

يا جرح أليم دائم الوجعِ، ماذا أقول.. ولمن أشكو ومنك واليك الحياة تعود يا سر حياتي ومماتي؟، يا جنة ضاعت مني خرائطها.

ما عاد يفرق بعدكِ جنة أم نار أسكنها، آيا حباَ كنت أرجوه وبيدكِ خنقته، وبكل برود وغباء وحمق في تابوت الصمت والإهمال سحقته، يا حزناً سكن الفؤاد والوجدان، حتى تمكن من أعماق روحي فدمرها.

فلتخبريني سر حياتي لمن أبوح بسر قاتلاً عنكِ قاتلتي؟، لا أنت من أحياني وللعراء والسقم تركني أتعذب وحدي أنوح بمفردي دون حضن أو سندِ، يا سري الدفين فلتعلمي رغم ما سبق لازلت انتظركِ فأنا أحتاجك أمان وحنان، أرغبك حباً ورعاية.

يا حباً عذبني حتى أسكرني من فرط جروح أيامي، يا من أحرقت بيديها عمراً كاملاً والآن تنادي، أين أنتَ أريد حبك وحنانك.. لكن لا ابتعدي، فيداكِ لم تزرع إلا قسوة القلب والحجرِ، فسحقاً لكِ لن تجني من ورائي سيدتي إلا كل عذاب وهوان، إذا تناسيت الرحمن ومشيت خلف هواجسي، فأنت شرخ القلب والروح غاليتي.

مجنونك/ نايف

..*

فاطمة رأيتك بالأمس تسيرين مع زوجك سعيدة، كانت نظرتك إلي باردة كئيبة، شعرت كأنما تقولين نايف أذهب.. أذهب؟!.. ستكون هذه أخر رسائلي إليكِ غاليتي..

أتريدين ذلك حبيبيتي؟!، حقا مني الذهاب طلبتي؟!، وسبب البعاد غيرك أتهمتي، سأذهب.. أُتعلمين لماذا؟؟..

قدرينا افترقا ومازالت تنكرين، بالدمع والنحيب الغزير تكتفين، تصمتين.. تحزنين.. ثم نفسك تركتِ لأعاصير الحنين والمستغلين، تقفين بمنتصف أمواج السنين، عذبتني وكطفل بريء تجلسين تثيرين الكآبة وبصمت تصرخين.

سأذهب.. فلقد أتعبني البقاء، وسأنهل من خيرات الأرض والسماء، سأختار من تقدم لي بهيام الاحتواء، سأعشق معوضة لكل هذا الجفاء، في الطريق يوما قد أراك مصادفة..

سألوح وأرسم ابتسامة محترفة، وأنظر لحبيبتي كطفل وأمة الحنونة، لن تغريني لأعود لأقوالك الملتوية الحزينة، يا قلب الحب له إحساس أجوف به مفتونة.

..*

وضع الخطابات مرة ثانية بصندوقها، وحملها مع باقي ما عثروا عليه بغرفه نايف، ليقابلوا والدته وإخوته وهم بحالة ذهول لا يصدقون ما قاله لهم قائد المجموعة بأن نايف قبض عليه أثناء محاولتة جمع معلومات لصالح إسرائيل عدوهم اللدود، لتصرخ والدته وتخر على الأرض مغشياً عليها.

عادوا إليه مرة ثانية بمحبسه، مطالبين إياه بالمزيد من الاعترافات، فكتب بنفسه هذه المرة اعترافاً كاملاً بظروف حياته، ومعاناته النفسية التي أثرت على وعيه، عله يفلتُ من العقاب.

كما كتب خطوات تجنيده بداية من تعامله مع زياد كتاجر حتى اكتشافه حقيقة أمره، ثم زيارته لإسرائيل وكيف استقبلوه كبطل قومي، وسجل كيف سيطروا عليه هناك بالمال والجنس.

..*

شهرنان..

بهدوء تخاطب امرأة ملامحها عاقلة ورزينة وتقول.. شهر نان أخبريني.. هل نملك قلب يحب بصدق دون هدف ومصلحة؟!

هل نحن حقا مختلفون عمن يحب لأجل هدف ما؟!، إذا كنا حقا نملكه فلمَ نصر على تعذيبه بأيدينا؟!، لم نقهره بما هو غير مباح وصعب المنال؟!، لمَ نكسر بخاطرة ونعلقه بأوهام الآمال؟!، في النهاية أغلبنا يهين قلبه بنفسه، تعددت الأسباب والجرح واحد.

فدينونة الحياة هي منظومة لا رد ولا استبدل، فالعمر بكل لحظاته هو دين يحاسبنا عليه رب العالمين يوم ميعاد، وأنا أضعت حياتي انتظارا لفارس على صهوة حصان أبيض يسرقني لكني الآن أتساءل أكان غباء انتظاري لحب كبير يأسرني من غياهب دنيانا؟، يسرقني حتى من نفسي؟، لمَ في النهاية أجد نفسي ما زلت وحيدا وسط صخب الحياة.

يوم أحببت كان قدري يسير مع من هو مغرور وأناني، بل حتى متوحد مع ذاته يرى نفسه الحبيب الصدوق، وباقي البشر دونه لا يرقون لصداقته، هو الكامل المتكامل وهم لاعبون وسط رماد الزمان، هو فقط من يتألم ويتعذب ويعمل والباقي منعمون.

أخذ فرحة القلب وبهجة العين وبراءة الخيال ثم رحل، واه يا وجع القلب عندما يقرر العناد، فيا أنتَ أنا لست بجارية أو عبده تملكها، فأفق وأستيقظ من سباتك العميق، من غرقك ببحرك السحيق لي حياتي، أمالي وطموحاتي وأحلامي.

نعم.. بحياتي أوقات فشل لكن يقابلها نجاح وان قلت نسبه، عندي أحيانا أوقات سقوط لكن دوما يتلوها لحظات صعود، يا فرحتي، وأنا أبدا ما استطعمت واستطيبت طعم زلاتي، دوما أقاوم صعوباتي وعقباتي وأتحداها بصمت.

يا قاس القلب على وصف معدن صلب اسميك، يا من رميتني بمحيط الأكوان المتصحرة، ورسمت بيت يخفيني بقبائل جرارة سارحة كالنمل قيدتني، ابتعد عن طريق الأخطار، فأنا كالليل والنهار بحر يغرق كل متباه، ظالم لأحبته حتى وان كان الثمن الموت بمرارة، ومعك أنا في النهاية ما زلت وحيدة.

..*

أخبرهم نايف أيضا أنهم صوروه بإرادته في أحط الأوضاع وأقذرها مع إسرائيليات، بدعوى أنهم مضطرون لتصويره لضمان إخلاصه لهم، ولكي يحافظ على جهاز اللاسلكي الذي يفوق ثمنه مائة ألف دولار، أضاف في اعترافاته أنهم وعدوه بثلاثين ألف دولار، مقابل تجنيد ضابط من صفوف المقاومة.

كتب بقائمة اعترافات الطويلة أسعار المعلومات المطلوبة، وجملة ما يخصه من أموال ورواتب متأخرة لدى الموساد.

حاول إقناعهم أنه ضحية ظروفه الصعبة القاسية، طلب منهم أن يتركوه وسيساعدهم وسيعمل لصالحهم، طلب فرصة أخرى ليُثبت لهم حسن نواياه، وبأنه لن يُخطئ مرة ثانية فقط طلب فرصة أخرى.. مع كل كلمة كان ينطقها كان يرى نظرات الازدراء في أعينهم له، ليتكوم داخل محبسه كل ليله منتظراً موته المؤكد..

آه يا نايف ضاع عمرك هدراً مقابل ماذا؟ لا شيء؟!، لم تتمتع حتى خلال تلك الفترة القصيرة بما جمعته من أموال، خوفاً من افتضاح أمرك، وها أنت قد كشفت..

آه يا لعمري.. عصور الحرمان أتت بتفاؤل، تبغي الاحتضان والعيش بتوغل، طردتها فبأي ذنب أقتل وأعذب بتمهل، ما فعلت إلا كما أملته الطبيعة بتفنن، أطالب بحقي في الحياة والأمن والسكنى، أنادي بأني أريد الحب والعشق بكل أدب، واه من حنين يعذب القلوب الحيرى بحبي، سأنهل من خيرات الإله بكل ذوق وتأدب.

فما بال الجميع يصرخ بأني سُلبت الأخلاق، خلق الله الجمال والحسان للإنسان ليعبده بتعمق، وسأحارب من تسول له النفس لمواجهة عشقي، فلتبتعدوا فلقد ولت عصور الحرمان بعمري، يا خلق الله أين أنتم من صنيع الله في أموري.

فالله وحده العليم بما انتويت والتواب الغفار لمَ أرغب، فالله الأحد وليا وهاديا لقلبي والقادر على زمام حبي، أهدني فيمن هديت يا غافرا فلك الأمور تعود يا حبيبي، فيا مثبت القلوب وهاديا ثبت على حبك وعشقك قلبي.

دعى نايف أن ينجيه الله، وسيترك البلاد وينتقل لأي مكان أخر لا يعرفونه وسيكون مواطن صالح، سيعيش كما كان يعيش في البداية بهدوء.

انتهى الفلسطينيون من تحقيقاتهم، فسلموه للسلطات اللبنانية لمحاكمته، فليس من حقهم عمل المزيد تركوه للقضاء اللبناني، كما ينص اتفاق وجودهم بالأراضي اللبنانية.

مَثَل الخائن أمام المحكمة العليا ببيروت، أُدين في فبراير 1973 بالحبس سبع سنوات، فقط سبع سنوات مقابل كل من ضحى بدمائهم نظير حفنه تراب تسمى نقود، أشرق وجهة من جديد.. أخيرا أطمئن على رقبته وأنه لن يُشنق، ستمر السبع سنوات ويفر من هذه البلاد ويختفي، لكن.. على نفسها جنت براقش..

فبعد ثمانية أيام في السجن عقد له زملاؤه السجناء محكمة مصغره، أعضاؤها الخمسة من القتلة واللصوص، ثم حكموا عليه إجماعاً بالإعدام شنقاً.

(براقش كلب هاجم اللصوص منزل أصحابه، فاختبئوا، لكن الكلب اعتقد بإمكانه إيقافهم، ظل ينبح فتركه صاحب المنزل كي لا يفضح وجودهم، جرى لمنع اللصوص من الهرب،عندما خرج أصحابه بعدها وجدوه ملقى على قارعه الطريق قتيل، ليعلق الأب "على نفسها جنت براقش").

..*

شهر نان امنحيني فرصة للحديث، لدي الكثير والكثير، فحبيبي هو هذا الماثل أمامك هناك، فامنحيني فرصة لاعترف له بحبي عله يحنُ وبمنحني من حبه القليل.

يا رجل رغم بشريته أراه ملاك يعيش وسط قطيع ذئاب، أخاف عليك كالطفل الرضيع وأتمنى لو أخفيك وأداعبك كحمل وديع، تعلم حبي لكنك تعلنا صديقين لإرضاء ما يتملكنا من خوف الحال.

يا رجل يهوى قربي ودوما تختار مجالي لراحة وهدوء البال، صباحك ومساءك فرحة وراحة بال يا صاحب أشهي البسمات، يا عيون خلابة ووجه اخذ للألباب طاب يومك يا باهي العبارات.

ما بين جنوني وشرودك أبواب وسراديب حكايات، تتجول فيها سائح جوال يستكشف كل الروايات، يبحث بتمعن عن جدوى ما فات وأهميه ما هو آت، سراديب تخبئ قصص لعشق مخفي لجروح وآهات، حب أخر وتعلق بهوى مضى منذ زمن وبك قد مات.

آه لو تعلم كم انتظر لقاءك وأتوق لرؤيتك، وكم احلم بوجودي معك بنفس البقعة في محيط الدنيا الواسعة، كم أتمنى لمس خيالك تنفس عطر أنفاسك والتهام عبير عينيك، لنتجول معا دون هدف، في تشردنا نشاهد نجوم سابحة كقناديل مجرات كون، جاذبية مثيرة لأحاسيس الغرام تعيش به حوريات الأحلام بكل بهاء.

ما بين طيات وأمواج ضحكاتك كلمات وكلمات، تجعلني المتفردة الجديرة بحبك وعشقك أنت، فأنا أنت وأنت أنا ولا مجال أخر لك غير حبي وعشقي.

فهل ستختار الهروب بالتخفي نهاية دربنا؟؟، آه منك كم أحب الشرقي المتعاجب بشرقيته، المتفاخر بقوميته العربية تلك السلوكيات تجعله أجمل وأشهى، يا صاحب الرايات وقاتل الهفوات يا ساحر الفتيات، حبك سالب الآهات ويلقي بي وسط نجوم سحاب عاجي الأركان.

يا وجه عذابي وحبي الطائش، يا عقل غافل متغافل، يا هدوئي في عالم متآمر، أحبك يا رجل غير الجميع.

..*

عندما فرغوا من تداول قضيته سـريعاً، بـدءوا يقتربـون منـه، ضـحك بصـوت عـال، سـخر مـنهم ومـن هـزلهم المبتذل، صرخ بهم مجانين.. أنتم مجانين،

انصرفوا بعيداً عني واتركوني لشأني.

ثم صرخ قائلاً:

من يطلب الغفران ممن؟

من يسامح من؟

من يأخذ القصاص ولمن؟

من هناك ومن هنا؟

من بريء ومن مذنب؟

من أنا ومن أنتم؟

من الملاك.. ومن الشرير؟

من منا إنسان؟

هذه هي الحياة..

عندما تختلط الأوراق،

عندما تضيع الروح..

وسط غياهب وظلمات دوائر الدنيا.

أنتم قتله سفاحون أما أنا فبريئ.

انقضوا عليه على حين غره،

سحبوه إلى منتصف المحبس، ووضعوا على رقبته أنشطوة لشنقة، كتموا فمه كي لا يصرخ ثم شنقوه بواسطة حبل جدلوه من ملابسهم عشية احتفاله بعيد مولده الثلاثون، ثم اعترفوا في التحقيقات بأنهم اقتصوا منه.

حاكموه بقانون الوطنية لا بقوانين وضعتها لبنان، فهذه القوانين تخص أمثالهم من القتلة واللصوص لا الخونة بائعي بلادهم بزهيد الأموال.

كيف شعر؟ ما المشاعر التي غمرت قلبه وقتها؟ هل ندم؟ هل استمر في لامبالاته؟

لا احد يعلم الله وحده العالم بخفايا نفسه وروحه.. وهنا تنتهي حكاية خائن، لكن لا تنتهي دائرة خيانة موجودة منذ قديم الأزل، مستمرة حتى نهاية هذا الكون الفاني.

..*

عائشة: هيا أمي ما رأيك فيما سجلت، لم يستغرق الأمر سوى خمسة أيام لأحكي لكٍ قصته.. أعتقد أني قد لملمت كل أشلاء الحكاية بمذكراتي، أليس كذلك حبيبتي حبيبه (قُلتها باسمة محاول إفاقة والدتي الغارقة في النوم).

حبيبة: نعم.. اااه (قالتها ناعسة) نعم بارعة أنتِ في السرد، ربما إذا خرجتِ يوماً من شرنقتك هذه، وتركتي حجرتك تحولينها لمسلسل، سيتعلم منه ويتعظ من تسول له نفسه بيع بلاده ودماء رفاقه وأحبته.

عائشة: ها قد عُدنا لتلك الاسطوانة المشروخة.. تصبحين على خير أمي.

حبيبه: تصبحين على واقع أجمل، وأخبار أروع طفلتي الحبيبة.

في الصباح كُنت متأكدة أن أمي دعت من صميم قلبها لأجلي، فقد كان صباح مُثير.. مُبدل لحياتي البائسة للأبد، فلقد استيقظت على صوتها يهلل..

أهلا مازن مرحباً بك أبني الغالي، الحمد لله على سلامتك، تعال سأجهز لك فطور خاص ثم أوقظ عائشة ستسعد بعودتك كثيراً.

مازن: حسناً أمي رغم أني لا أريد فطور لكني لن أرفض عرض مغري كهذا.

عائشة: آه مازن.. حبيبي أيقظتني على مسافات وليس مسافة واحدة، تسكن قلبي وعقلي مسافات كبيرة شاسعة، تفصل بينهما وكأنهما جزيرتان واحدة بوسط العالم والآخرة بآخره، لا يربط بينهما غير كلمات تجول في الخاطر تحكي عنكَ..

كلمات تراضي هذا وتراضي ذاك، ينشر عبقها أريج وجودك بيننا، كم أتمنى لو كل صباح تنير الدنيا بعبير طلتك، أسعدك الله وأدام لك الخير والرقي والجمال.

لم أستطع الانتظار أكثر حتى تأتي أمي لتوقظني كما أرادت أو لتساعدني، لم أهتم أن يراني قعيدة كرسيي، استندت على سريري حتى وصلت إلى كرسي وجلست عليه لأخرج وأراه، أخيراً سأراه، آه حبي الوحيد ها انت قد عُدت أخيراً.

لمحني خارجة من الغرفة، أهلا.. أهلا بعائشة افتقدتك كثيراً أيتها الشقية، لم ينتظر وصولي إليه لألقي السلام بل اقترب باسماً..

طبع قبلة على جبيني، أخفيت وجهي بكفي مُفاجئة من فعلته وخجلاً منه ومن أمي التي كانت تواً خارجة من المطبخ حاملة صينية الفطور، ما كان منه إلا أن توجه إلي أمي الذاهلة من فعلته، المشحونة بغضب جم لاستهزائه بوجودها ليفعل هذا وضعت الطعام على منضدة صغيره في غرفة المعيشة عاجلها قائلَ:

خالتي.. زوجيني أبنتك لن انتظر المزيد، لقد تعبت حتى توصلت إليكما، أريدها زوجتي ما بقى من عمري..

لا أنكر دهشتي الكبيرة رغم فرحتي العامرة وأمي بطلبة، هل حقاً ما سمعت؟!، حركت نفسي مسرعة إلى الغرفة، وسمعت أمي تجيبه بأن عليه مفاتحة عمي نواف في الأمر فهو رجلنا، وافق وأخذ منها عنوان بيته كي يذهب إليه مساءاً..

هكذا بدأت رحلة جديدة في حياتي بمشاركة مازن وأمي.. هي هكذا الحياة لا تستقر أبداً على حال.

كان حب مازن سندي في وقت سئمت فيه من تهدم هياكلي، تهشم صوامعي، إخراس صوت ابتهالاتي، انحناءات ظهري لسقوط سقفي..

وقت قررت فيه نحت من شخصية مازن تمثال شهم حصيف، رزين عاقل ومبدع مجنون وحنون، يساعدني على تحمل الحياة..

لكني لم أظهره لأي كان في هذا الكون، ليظل ليَّ وحدي أبد الوجود، زميل عمر وأخ كفاح وتوأم روح، حتى مماتي..

ها هو ظهر ليكون واقع وحقيقة في حياتي لا مجرد تمثال زائف داخلي، مع مازن صرت روح متلونة، نعم روح متلونة، بسهام الشمس الذهبية، وبأشعة القمر الفضية..

مشبعة بضربات البحر الهادرة بنعومة، بصفاء سمائي الزاهية، ولمسات نجومي الحانية، بعتمة الغيوم في عيوني، بنغزات الشتاء الموجعة بلطف، بحرائق الصيف الباردة بوجوده..

لقد أصبحت متلونة، بالدنيا وما فيها، بأحداثي ومآسيها، بأفراحي وغناويها، نعم روحي متلونة بعشقه.

الآن لدي ومازن فتاتان وولد شقي مشاغب، نُقيم مع أمي في لبنان بعد إجرائي عمليتي في القاهرة، مازن لازال مناضلا من أجل تحقيق أهداف قضيه تحرير فلسطين، أغلب وقته يُقضيه متنقلاً بين القاهرة ولبنان وفلسطين..

أما أنا فقد أصبحت الإذاعية الناجحة عائشة الغزالي، كاتبة مطلوبه قصصي المتنوعة الأحداث، فأنا عاشقة لسرد الواقع مجملاً ببعض الخيال، مقتنعة بعدم إثارة اكتئاب قرائي، هدفي كتابة ما يبُث الأمل، لا ما يخنق الإحساس.

..*

شهر نان أخبري الأحبة بأنه..

ما دام ودهم في وادينا يرتع فبقدرة الله حبهم بقلوبنا دائم ومستديم، فما بيني وبينهم حبال أفكار رماد بداخل جوف قلب نار، كلما قطعناها لنهرب من سجن غار، تعيد الدنيا ضم قلوبنا وتغني لا مهرب من جنتي يا أحباب.

كيف الفرار وعينيه لألي درية وبحار ماسية؟، عالمي هو أهرول به دون روية، معه وجدت روح كنفسي هويتها عشقتها واشتهيتها، لذا انتظر حبيبي كل صباح حتى يفتح لنوافذ غرفته..

كم أحبه عندما يثير زوبعة ليراني إشراق لصباحه, وتبهجني تحيته الصباحية المخفية بين نغمات بصوت جهوري يدندنها، ويصبح شكلي مثيراً للريبة عندما يُعلمني بقرب نزوله بطلبه فنجان قهوة تركية من والدته على عجل..

لكم أعشق مناورات إضاءة حجرة مكتبه لأعلم أنه قد حان موعد لقاء يجمعنا، موعد ليلي خاص نتبادل فيه أحاديث عما حواه اليوم من أحداث ومشاكل وحلول جاءت فقط بتجمع عينينا، آه لو يعلم أهلينا بوجود رسائل سرية طائرة بين عمائرنا.

أعلم أن البعد دربنا كل منا سيذهب في طريقة.. لكنى ما زلت أريد قربه، فماذا فعلت وعلى نفسي ما الذي جنته يداي؟ .

آه يا نفسي لمَ كان القرب ولمَ كان البعد مصير؟، آه يا نفسي وآه يا لوعتي على ما فعلت وجنيت، وليته يدري مدى ألمي رغم حبه عندما يُهَدِئ العقل من سيطرته ويترك القلب وحيدا يتوجع،

كيف يستقيم الظل والعود أعوج؟!!، فبوجود حبيبي يستقيم عودي ويشتد لأقاوم كل أحداث ومنغصات الحياة.

لكن إلى متى سأظل أُخفي عيني عن رؤية، كل ما يبعدني عن حبيب أتمنى وصله وهواه؟!، إلى متى أكذب على نفسي ممنية إياها بصلاح الحال يوما ونهل الشهد من أنهار هواه؟!،

إلى متى أتجنب النظر والتعمق فيما تفعله يداه لقتل ما يجمعنا وترك ما يفرقنا فقط دون مبالاة؟!، إلى متى؟!..

إلى متى أظل ضعيفة كسيرة الخاطر في حمى حب واه؟!، إلى متى أقبل مساومات لقرب مُثَمن، قرب أشبه بقرب الأشباح دوما مُرعب مفزع قد يقتل في لحظة؟!

إلى متى أوافق على اقتراب كاقتراب الجان نستشعر وجودة لكن أبدا لا نراه؟!

إلى متى أشياء كثيرة تُفعل هي للإهانة أقرب وللحب أبعد، أشياء بغيضة منه تصدر وأقبلها ضعفا ومهانة فإلى متى يا قلب ستظل تقبل وتقبل؟، أجبني بالله عليك متى تثور وتفيق لتعيش وتنال ما تستحق؟!، إلى متى؟!.

لم تعد المشكلة فيمن أحب وأهوى هو فعل كل ما يمكنه لقتل ما بداخلي من حب وعشق وهيام، أصبحت الآن الأزمة في قلبي، لمَ الاستكانة بذل وخنوع راضية بدور الجارية؟!،

لمَ تقبل الملكة أن تنزل عن عرش الهوى وتتنازل عن تاج عفه الغرام وتركع بخضوع لحب ضعيف هزيل الأركان؟!، آآآه من وهن صار يتملكني معك..

لمَ تضيع مقاومتي أمام نبرات صوتك وتهيم سراب بين نظرات عينيك؟!

آآه مني ومن حب يحبسني بضعف داخل خيوط شبكته العنكبوتيه، آآآه من مشاعر تتجنى عليَّ وتأسرني بقفص حب خانق لهواي..

آه ثم آه منك يا من تدعي حبي وعشقي وغرامي وترميني رغم هذا بكل ما يسجنني بتوابيت عشقك المنسي، تدفنني حية وسط أشلاء حب، تسكنني بيت غرام صدر قرار إزالته منذ عهود.

تركبني قطار الموت بمدينه ملاهي لا تراعي شروط أمان، تسندني على سور أماني وطموحات سقطت دعائمها منذ قرون، آه ثم آآه منك ومن حبك ومن نفسي يا غرام واهٍ وضعيف الخلجات.

انتهت

مذنبة بالجرم الشهير

حبيبي...

سألني حبيبي.. أتحبينني أنا.. أم أبياتي؟ سأجيبه هنا بكتاباتي.. نعم..أحبكما.. أحبك وأحبها، أراها تحيطك وأراك بها،، تجذبني إليك وتجذبني إليها،، أسبح بك وأطير بحروفها،،أغوص بأعماقك هائمة برؤيتها،، أُفتن مرة بك والأخرى بسحرها،، أشعرها تحميك وأنت تحويها،، أنفاسك تعطرني وأنا غارقة بسطورها، ألمسك متعمق بداخلي لسماعها، أراك بخلجاتي هائم لقراءتها.

وكيف لا أحبها؟! وهي سفيرتك وأنت كاتبها؟! أنت هي.. وهي أنت لكن.. لا يمكن الاستغناء عنك بحبها.

سألني عن حبي للأشياء الغريبة.. إعجابي بالكتابات والنقوش العجيبة، عشقي للروايات والأساطير المريبة.. سرحاني بصوري ورسومي الحبيبة، هيامي بقصص حوريات الجنة البديعة.. افتناني بالدنيا رغم أحداثها المريعة، قناعتي بأنني أنثى مدغشقر فظيعة، معك سيدي أهوى السحر والطبيعة.

لمَ تستغرب عشقي للكلمات.. تطالبني دوما بالإثبات لعشقك والثبات، أنت من جعلني أحب الساحرات.. يا سر هدوئي وحياتي وخلودي بالحياة، حبك يمنحني الصمود فهو كالمياه.. عشقك الخفي يشكلني بما أهواه.

مع..عشقك أرتل أشعار من داخل جوف قصص الأغيار، يا حب سكن فؤادي نهار في بعدك تُسحب روحي كالإبحار، أتمناك قريب يسمعني أعذب ألحان المزمار ففي قربك.. تدفئ قلبي وكأن ما بيننا عذب الأنهار.

حبيا يتميز بالطبع الطيب وحسن جمال الإعصار، وجود ينسف أوهامي وعليها يبنى خيالات الأسحار، هواك خليطا أكونه بنفسي كجبال شاهقة ليست أهوار، عشق وغرام وعليهما بعض الوله يزينه دلال الأخيار.

مذنبة أنا بالجرم الشهير.. عاشقة أنا لرجل خطير، فهل يا تُرى ترضى بحب مثلي، أم تستهويك فتيات المخملي؟! يا رجل من خلف الأساطير، بروحي وقلبي ها أنت تطير .

هل يا تُرى يرضيك عقلي.. أم تستهويك ذات الجمالِ؟!. معك الجنون مسيطر وكبير.. والفنون تشع مني يا أمير.

هل يا تُرى ترأفٌ أنت بحالي؟!.. أم تستهويك صاحبة المالِ؟!، ملك بأشعاري حلمي معك أكون.. بعينيك وحنانك لمست عذوبة التغيير، فهل يا تُرى ستكون إلهامي وهلالي؟!.. أم تستهويك الفتيات ذات الأفضالِ؟!.

معك..حبي بأحضانك طفل بريء غرير.. وأنت في العشق سلطان، فهل يا تُرى سأكون لك بالحلالِ.. أم تستهويك العيش بالظلالِ؟!، دونك لازلت ملاك فقير.. بك ومعك حبي حياتي ضياء قِنديلٌ منير.

فهل يا تُرى تراني واستهويك يا غالي؟!.. حلمي وواقعي الأثير، الطائر بأحلامي كالعصافير، بالنجوم زرعتني.. بالقمر شبهتني.. وسط الأمطار فتتني.. بالسحاب سحرتني.

اااه توأمي ذوبتني.. بأرضك حطمتني، وبسمائك بعثرتني، بأمواجك كسرتني، وبرياحك قهرتني، وها قد جئتني.. متمهل متأني بالهوينى، تتغزل مغنيا لعيوني، تقربني وتحتويني، وبذاتي تفرحني، عطرا صاف شممتني، وخيال مشرق أريتني، ااه منك.

يا واقعي وضي سنيني، واقعك أنا وحبك فضمني، يا هاجري ومعذبي أحيني، كالجنين حنيني اسقيني، حبي الأثير.. كن في دعائي شريكِ وصحبتي، وبصلاتي كن إمامي وقدوتي.